الدكتور صلاح الدين المنجد

بين

الخلفاء والخلعاء

في العصر العباسي

دار الحياة

بيروت

١٩٥٧

تمهيـــد

لم يدرس العصر العباسي حتى اليوم دراسة دقيقة مفصلة، ترى فيها معالمه واضحة . وجل الدراسات التي بين ايدينـــا تدور حول التاريخ السياسي . اما التاريخ الحضاري ، وحياة الطبقات الاجتماعية ، فما يزال خطوطا عامة تحتاج الى كثير من التوضيح والتفصيل .

وكنا عنينا بهذا الامر من قبل ، يـوم اصدرنا كتابا عـــن « الظرفاء والشحاذين » فى العصر العباسي .

وما نشك ان الخلفاء العباسيين أثروا الى حد بعيد فـــي المجتمع الاسلامي ووجهوه ، فقد كانوا مثالا تحتذو حذوهـــم الطبقات الاجتماعية المختلفة ، وتقلدهم فى الكثير من سيرتهـم وملابسهم ومطاعمهم ومجونهم ومباذلهم . فكـان لابد مـــن توضيح اطـراف مـن حياتهم الخاصة لنـدرك الاثر الـذي تـركوه فى الشعـب .

وسيجد القارىء فى هذه الصفحات صورا جديدة عن حياة « الخلفاء والخلعاء » وغيرهم ، سلخنا طويلا فى ضمها بعد ان كانت موادها متناثرة ، ينعكس فيها ازدهار الحضارة ، وما بلغته من رقي ورفيف .

فاذا استطاعت هذه الصور ان تسهم فى تأريخ الحضارة العربية فى عصر كان من أغنى وأعنف عصور تاريخنا ، فقد بلغنا ما هدفنا اليه .

صلاح الدين المنجد

- ١ -

حكومة النساء لــدى الخلفــاء

يقول « دوفيل » فى كتابه عن الامبراطورة جوزفين (١) :

« ان من النساء من اوتين الميل الى الحكم والرغبة فيه ، رغم مافيه من مشاق ومتاعب . لانهن لايرين فى شيء من الاشياء مستحيلا . فتلك ظاهرة ، فى طبعهن وغريزتهن ، فهن يرغبن فى الاحاطة بكل شيء علما ، وعرفان ماتحته وما فوقه ،ليتممن النقص الذي فيهن . فهن يحكمن عشاقهن . فاذا اخطــأهن ما املن ، حكمن ازواجهن واولادهن . ثم تعدين ذلــك الى حكم صواحبهن ، فاذا وجدن المجال ذا سعة ، وكن ممن يلوذ بالملوك والامراء والوزرآء ، سولت لهن انفسهن ان يحكمــن الرعية ويدبرن امــورهــا . »

اما حكمهن العشاق ، فأمر لاريب فيه . فهن في اغلــب الاحايين عابثات بالقلوب ، لاعبات بالالبــاب . امــا حكمهن الازواج فأمر كثير الوقوع وندر آن تجد امرأة لاتحكم زوجها . ولكن حكمهن العباد ، وتصريفهن الامور ، وتدبيرهن الملك قد

---

(١) **L'Imperatrice Josephine** (Flammarion)

تبدو مستحيلة لاتقع ، بعيدة لاتنال . على ان لجاجة النساء لاتوصف والحاههن لايدرك ، ثم هن لايعرفن المستحيل . وفى التاريخ الاسلامي الوان من البرهانات ، تدل على حكمهن . وسأسوق الادلة من بدء العصر العباسي الى منتصف القرن الرابع .

وقبل ان ابدأ ، اذكر أن الجاحظ قد لاحظ بعض هذا ، فقال : « انه لم يزل للملوك اماء يختلفن فى الحوائج ،ويدخلن فى الدواوين ، ونساء يجلسن للناس» . فيذللن ما صعب ويدنين مابعد . على ان سلطانهن كان على قدر مبلغ سحرهن ونفوذ اثرهن وتملكهن قلوب الخلفاء . وواضح ان تحكمهن يكون على قدر ضعف الخليفة ورقة عقله وانقياده . ولذلك تجد ان بعضهم تركوا لهن الامر كله ، وان بعضهم سايروهن مرة وغاضبوهن مرة ، وآخرون لم يحفلوا بهن ابدا .

فالسفاح ، ابتعد عن النساء ، فلم يرغب فيهن لملذاته بله استشاراته . وحاول خالد بن صفوان ان يثير شهواته مرة بذكر الجواري واوصافهن ليغريه بشرائهن ، فلم يفلح . وكان يقول : « العجب ممن يترك ان يزداد علما ، ويختار ان يزداد جهلا ! »

فسئل : ماتأويل ذلك ؟

قال : يترك مجالسه مثلك ومثلّ اصحابك ، ويدخل الى امراة فلا يزال يسمع سخفا ويروي نقصا !

على ان المنصور كان الين منه ، واندى سمعا للنساء . تزوج ابنة منصور الحميرية ، فشرطت عليه ان لايتزوج ولا يتسرى الا عن امرها ،ففعل. ولم يتعد سلطانها زوجها. (١)

وبدا سلطان المراة يقوى مذ تولى المهدي الخلافة ، وتزوج الخيزران. فقد كان لها سلطان على القصر ، والندماء والحجاب والاطباء ، تقرب منهم من تشاء وتبعد من تشاء . ولقد اخذت مرة فى مناكدة بختيشوع بن جورجيس الطبيب ومضاربته ، واثرت فى المهدي ، فلم ير بدا من اعادته الى جند يسابور . (٢)

فلما ولي الخلافة الهادي ، زاد نفوذ الخيزران وتدخلها فى شؤون الدولة . وقد كان الهادي يتناول المسكر ، ويلعب ويلهو ، ويركب حمارا فارها ، ولا يقيم للخلافة أبهة ولا عظمة فلا عجب ممن كان هذا شأنه ان وكل امور الدولة كلها الى امه الخيزران ، فكان كثير الطاعة لها يجيبها فيما تسأل من الحوائج . فكانت المواكب لاتخلو من بابها . وبلغ الامر بها ان استولت على زمام الامور .

واستيقظ الهادي من غفوته او غفلته ، وراى أن أمور الدولة بين يدي امه . فكلمته ذات يوم فى امر ، فلم يجد الى اجابتها سبيلا فاعتل بعلة ، فقالت : لابد من اجابتي !

قال : لاافعل !

---

(١) العقد الفريد ، ج ٣ ، ٣٠٠

(٢) اخبار الحكماء للقفطي ، ص ١٠١

قالت : اذا لاأسألك حاجة ابدا !

قال : اذا والله لاابالي ، ولئن بلغني انه وقف ببابك احد من قوادي ، او احد من خاصتي او خدمي لاضربن عنقه ، ولاقبضن ماله . فمن شاء فليلزم ذلك !

ثم اخذ يعنفها ويؤنبها ويقول لها : مآهذه المواكب التي تغدو الى بابك كل يوم ؟ اما لك مغزل يشغلك او مصحف يذكرك أو بيت يصونك . اياك اياك ان تفتحي فاك فى حاجة لمسلم ولا ذمي ! (١)

كانت الخيزران من ذوات الاثرة . وهذا النوع من النساء لايبالي بما يفعل فى سبيل آرضاء الاثرة والاانية وبسط النفوذ . ولقد كانت ترغب فى الامر والنهي والحكم . فوقف الهادي ــ بعد ان اتسع الخرق ــ ليسترد سلطانه . فلما ضايقها الامر وآنست من ابنها معارضة وقوة ، وآلمها ان يذهب سلطانها ، وترد المواكب عن بابها ، ارادت ان تنتقم منه ، فدست اليه جواري من جواريها غطين وجهه وجلسن فوقه فقتلنه (٢) ، كل ذلك ليعود الامر اليها وحدها كما كان . وقد تم لها ما ارادت وتدفقت عليها الاموال ،حتى بلغت غلتها قبيل موتها مائة الف الف وستين الف درهم . (٣) وقد قدر

---

(١) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٢٥٨

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ، ٤٠

(٣) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٢٦٣

احدهم ان هذا المبلغ يعادل نصف خراج المملكة العباسية آنئذ وثلثي غلة روكفلر فى هـذا القرن . (١)

فلما ولي هارون الخلافة ، كانت الخيزران هي الناظـرة فى الامور . وكان يحيى بن خالد يعرض عليها ويصدر عن رأيها (٢) وكان الرشيد لايعصى لها امراً . وقد ذكر الطبري ان الرشيد لما عاد من دفنها ، دعا الفضل بن الربيع وقال له : وحق المهدي ، اني لأهم لك من الليل بالشيء من التولية وغيرها ، فتمنعني امي ، فأطيع امرهـا ! (٣)

اما بعد مقتل البرامكة فقد استبد الرشيد برايه ، حتى ان ظئره ام جعفر ـ وكانت قد ارضعته وربته ـ دخلت عليـه ايام النكبة فتلقاها واكب على تقبيل راسها ومواضع ثديها ، فقالت : ياامير المؤمنين ، ايعدو علينا الزمان ويجفونا ، خوفا لك ، الاعوان ، وقد ربيتك فى حجري ، واخذت برضاعك الامان من عدوي ودهري ؟

ثم اخذت تستشفعه فى يحيى والفضل ، فلم يسمع لهـا ولـم يـرق لكلامها . (٤)

ولم يكن لزبيدة من الامر ، زمن الرشيد ، ماكان للخيزران ،

---

(١) التمدن الاسلامي لزيدان ، ج ٢ ، ١١١
(٢) الطبري ، حوادث سنة ١٧٠
(٣) المصدر السابق
(٤) العقد الفريد ، ج ٣ ، ٢٦٧

وان كانت هي ايضا ذات سلطان . وكانت تهب وتصل وتعطي وتستشفع ولكنها ماكانت تتدخل فى شؤون الدولة . ولعل ذلك راجع الى البرامكة الذين استولوا على الامور كلها .

وفى الحقبة الممتدة بين خلافة المأمون والمعتضد ، نلاحظ تدخل القيان من مسمعات ومغنيات وشواعر فى امور الدولة . ونلاحظ عظيم سطوتهن عند الخلفاء ... فكن يستشفعن ويقربن ويولين ويبعدن . وان كان بعض هذا قد حدث زمن الرشيد ايضا . فقد كان كلفا بذات الخال ، فحلف لها يوما ان لاتسأله شيئا الا قضاه . فسألته ان يولي رجلا يحبها ،الحرب والخراج بفارس سبع سنين . ففعل ذلك وكتب عهده به . وشرط على ولي العهد بعده أن يتمها له ان لم تتم فى حياته . (١)ولعله اجابها الى ما سألت ليخلو له ، او لها ، الجو .

ويذكر الاصبهاني ان ابراهيم بن المدبر ، لما سجن ، سألت عريب — وما ادراك ماعريب ! — الخليفة فى اخراجه . فوعدها بما تحب ، ثم اطلقه . (٢)

وكانت القيان ذوات السلطان ، يتعصبن لطائفة سياسية او يشايعن مذهبا ، ويقضين حوائج اهله عند اولي الامر . وقد ذكر ابن المعتز ان فضلا الشاعرة — وكانت فى نهاية الجمال والكمال والفصاحة وجودة الشعر — كانت تتشيع ، وتتعصب

---

(١) الأغاني ، ج ١٥ ، ص ٧٦

(٢) المصدر السابق، ج ١٩ ، ١١٦

لهذه العصابة من الناس ، وتقضي حوائجهم بجاهها ومنزلتها عند الملوك والاشراف . (١)

وغضب الواثق مرة على اسحاق الموصلي ، فرضته عليه فريدة جاريته . وكانت أثيرة عند الواثق حظية لديه . (٢)

***

وما كاد يقترب القرن الرابع حتى اصبح النساء والقيان ذوات سلطان كبير . ويذهب آدم متز الى انهن كن يطالبن بالحق بالمهام الكبيرة ــ وما اشبه الليلة بالبارحة ــ لان ابن بسام الشاعر يقول :

ما للنساء وللكتابة والعمالة والخطابه
هذا لنا ، ولهن منا ان يبتن على جنابه (٣)

على ان القرن الرابع قد امتاز بالقهرمانات ، فقد كان لهن الامر كله ، وكن يعملن الاعمال الكبار ، يعزلن الوزراء ويولين الولاة ، ويجلسن للمظالم . وقد ذهبن الى ابعد من هذا وذاك فكن يقضين بين الناس . فأم موسى القهرمانة هي التي اوصلت ابا الحسين بن ابي البغل الى الوزارة ، فكان لايخرج عن امرها (٤)

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز (اقبال) ، ص ٢٠٠
(٢) الأغاني ، ج ٥ ، ٩٠
(٣) الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ١٤٥
(٤) الصابي ، ص ٢٧٢

وكانت تجلس اخا لها عند القصر ، فيلقاه النـاس واصحاب الحوائج فيأخذ رقاعهم وشكاواهم وقصصهم اليها . (١)

وهي التي اغرت المقتدر بالله والسيدة امه ، بعلي بن عيسى بـن داود في وزارتـه (سنة ٣٠٤ هـ) فقبض عليـه واودع السجـن . (٢)

وهي التي كانت تزيد في ارزاق الخدم وتنقص منها . (٣)

والسبب في تدخل هؤلاء القهرمانات في امور الدولة ، ضعف المقتدر . فقد كان مشهوراً بالتدبر بآراء النساء (٤) وكانت السيدة والدته ، وخاطف ، ودستنبويه ، ام ولد المعتضد ، يدبرن الامر لصغره . ثم ظل تدخلهن جاريا . وهكذا انتقلت الحكومة في ايامه ، في بغداد ، من الرجال الى النساء .

ويذكر السيوطي انه في سنة ٣٠٦ هـ ، ـ اي زمن المقتدر ـ آل الامر الى ان امرت ام المقتدر قهرمانة لها تعرف (بمثل) ان تجلس للمظالم بالتربة التي بنتها بالرصافة ، وان تنظر في رقاع الناس كل جمعة . فكانت تجلس ، وتحضر القضـاة والاعيان ، وتبرز التواقيع وعليها خطها . (٥)

---

(١) الصابي ، ص ٢٧٧
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٨٦
(٣) المصدر السابق ، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤
(٤) المصدر السابق ، ص ٢٧٩
(٥) المنتظم لابن الجوزي ، ج ٦ ، ١٤٨

وقبضت ام المقتدر على زمام الامر . وامتد سلطانها على كل شيء حتى انها كانت تراقب ـ لحذرها ـ ماكان يقراه ابناؤها . وقد ذكر الصولي انه كان يوما عند الراضي يقرا عليه شيئا من شعر بشار ، وبين يدي الراضي كتب لغة وكتب اخبار ، اذ جاء خدم من خدم السيدة جدته ، وهي شغب ام المقتدر ، فأخذوا جميع مابين ايديهما من الكتب ، فجعلوه في منديل ابيض كان معهم ومضوا . فاغتاظ الراضي . فسكن منه استاذه ، وافهمه انهم ارادوا ان يمتحنوا الكتب . ولما مضت ساعتان او نحو ذلك ردوا الكتب بحالها ، فقال لهم الراضي : « قولوا لمن امركم بهذا : قد رايت هذه الكتب ، وانما هي حديث وفقه وشعر ولغة واخبار وكتب العلماء ، وليست من كتبكم التي تبالغون فيها مثل عجائب البحر وحديث سندباد ، والسنور والفأر . » (١)

وظل المقتدر على عرش الخلافة زهاء خمسة وعشرين عاما ، والنساء من حوله يحكمن .

ومن الطرافة ان نذكر هنا ان المعتضد كان قد تنبأ لابنه المقتدر بان النساء سيستولين عليه . حدث صافي الحرمي مولى المعتضد قال : مشيت يوما بين يدي المعتضد ، وهو يريد دور الحرم فلما بلغ باب شغب (أم المقتدر) ، وقف يتسمع

---

(١) الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ١٦ ـ نقلا عن اوراق الصولي .

ويتطلع من خلل الستر فاذا هو المقتدر ، وله اذ ذاك خمس سنين او نحوها ، وهو جالس وحواليه مقدار عشر وصايف من اقرانه فى السن ، وبين يديه طبق فيه عنقود عنب فى وقت لايوجد فيه العنب ، والصبي يأكل عنبةواحدة ثم يطعم الوصائف كلهن على الدور ، حتى اذا بلغ الدور اليه اكل عنبة واحدة ، حتى فني العنقود ، والمعتضد يتميز غيضا . فاهتم ورجع ، فسألته فقال : والله ياصافي ، لولا النار والعار لقتلت هذا الصبي اليوم ، فان فى قتله صلاحا للامة !

فقلت : يامولاي حاشاه ، اي شيء عمله ؟ أعيذك بالله من اللعين ابليس !

فقال : ويحك ، انا ابصر بما اقول . انا رجل قد سست الامور واصلحت الدنيا بعد فساد شديد ، ولا بد من موتي . واعلم ان الناس بعدي لايختارون غير ولدي . وسيجلسون ابني عليا (يعني المكتفي) ، وما اظن عمره يطول للعلة التي به (يعني الخنازير التي كانت فى حلقه) فيتلف عن قريب ، ولا يرى الناس اخراجها عن ولدي فلا يجدون بعده اكبر من جعفر (يعني المقتدر) فيجلسونه وهو صبي . وله من الطبع فى السخاء هذا الذي رايت . فتحتوي عليه النساء لقرب عهده بهن ، ويقسم ماجمعه من الاموال كما قسم العنب !

وكانت الصورة كما قال المعتضد بعينها . (١) .

---

(١) المنتظم ، ج ٦ ، ٧١

وفى عهد المقتدر اشتد سلطان امراة اخرى يقال لها « زيدان » ، وكان لها طبيب خاص بها ، هو عيسى البغدادي ، يحمل الرقاع بين الوزراء وربما حملها اليها لتعرض ذلك على الخليفة . (١)

وقد استطاعت زيدان هذه ان تتمكن من جواهر المقتدر وان تأخذ سبحة لم ير مثلها ، كان يضرب بها المثل ، فيقال سبحة زيدان . وكانت قيمتها ثلثماية الف دينار (٢) واستطاعت ان تجعل دارها سجنا . فقد سجن عندها علي بن عيسى بن داود بعد وزارته (٣) ، ومن قبله وكل بابن الفرات عندها (٤) كما سلم اليها الامر الحسين بن حمدان ايضا . (٥)

وثمة خليفة آخر لعبت به النساء ، هو المستكفي . فقد كان عبدا لحسن الشيرازية . وكانت هذه قد سفرت بينه وبين توزون القائد التركي ، واستطاعت ان تجعله خليفة ، وتولت ايضا سمل المتقي بيد غلامها السندي . (٦)

واصبحت بعد ذلك تستبد بالمستكفي ، وتتولى عرض الغلمان

---

(١) تاريخ الحكماء للقفطي ، ص ٢٤٩
(٢) المنتظم ، ج ٦ ، ٧٠
(٣) الصابي ، ص ٢٨٦
(٤) الصابي ، ص ١٠٥
(٥) الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ٢٤٣
(٦) الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ٢١

والحجاب فى قصر الخليفة ، فى مجلس يقال لـه الحـوذان . فانخرقت الهيبة بهذه المراة ، وذهبت الرسوم التي كـانت للخلافة وصارت الدار طريقا لكل من يراها . (١)

***

يتضح من هذا ، ماكان عليـه خلفاء بني العبـاس ، حتى منتصف القرن الرابع ، وما كان من اثر النساء فيهم ، ومـا ادى تدخلهن فى الامور ، من انخراق الهيبة ، وضياع الامور ، وانتشار الفوضى . وهذه نتائج طبيعية محتومة لمن يولي امره امراة ويدعها تفعل ماتشاء .

(١) الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ٢٤٠

- ٢ -

القريــة الفضية

هذه القرية ، هي احدى عجائب العصر العباسي في بغداد . وما اكثر ماكان في زمن العباسيين من عجائب . وكانت قريــة من فضــة ، وفيها كل ماتجد في القرى : من بقر ، وغنم، وجمال، وجواميس ، واشجار ، ونباتات ، ومساح ، وناس . وكـــل ذلك قد صنع بأدق صنعة من الفضة ، وأنفـق عليــه آلاف مـؤلفــة مــن الــدراهم .

وكانت هذه القرية قد صنعت للخليفة المقتدر ، ليرى كيف تكون القرى . واغلب الظن انه اشتهى رؤية قرية وصنعــت هــــذه لــه .

وقد نعجب بالحضارة الاسلامية التي بلغت في القـــــرن الرابع الهجري نضجها فابدعت أشباه هذه الاشياء . وقـــــد يدهشنا ماأنفق هذا الخليفة من الاموال ، لتصنع له هذهالقرية. ولكن الذي يدعو الى العجب والدهشة معا ، قصة هذه القرية واثر النساء في مصيرهـــا .

وهذه القصة جديرة بان تكون خاتمة لما ذكرناه عن حكومة النساء لدى الخلفاء فى زمن بني العباس .

ذلك ان ام المقتدر ـ وكان لها من الشأن ماعلمت ـ كان لها داية تخدمها تسمى « نظم » . وكانت نظم بارعة ذكية ، فما زالت حتى صارت من قهارمها ، وصارت تجري على يديها الكبير من الامور والصغير . وكانت نظم ترغب فى رجل اسمه ابو القاسم يوسف بن يحيى ، فرفعته ، وانتهت به الى اسنى الارزاق واوسع الاحوال ، وقربت بينه وبين السيدة حتى اخرجت له الصلات ، فتأثلت حاله ، وصار صاحب عشرات الوف من الدنانير ، ثم خلطته بخدمة السيدة الأم ، فزاد منها تقربا .

وعزم ابو القاسم هذا ، على تطهير ابنه يوما ، فأعد لوليمة الختان عدة كبيرة ، وأنفق على ذلك مالم يسمع ان فعل مثله رجل من الحاشية ، حتى انه لكثرة ماأبتاع من الحاجات أفرد عدة دور للحيوان ، وعدة دور للفاكهة . وبلغ « نظم » خبره ، فسعت عند السيدة الام ، وجاءته من عندها بالاموال والفرش والآنية والثياب والمخروط . (١)

فلما مضت ايام سألت السيدة « نظما » : يانظم ؛ ايش خبر طهر ابن يوسف ؟

---

(١) المخروط ضرب من الزجاج

قالت : ياستي ، قد بقيت عليه اشياء يريدها ؟

فقالت : خذي ماتريدين واحمليه اليه !

فجاءت نظم اليه وقالت : ان كان قد بقي فى نفسك شيء ، فعرفني .

فقال لها : الختان غدا ، وما بقي فى نفسي شيء الا وقد بلغته بك ، وقد بقي فى نفسي شيء لست اجسر على مسألته !

قالت : قل مافي نفسك !

قال : أشتهي اعارة القرية الفضية التي عملت لامير المؤمنين ليراها الناس فى داري ، ويشاهدوا مالم يشاهدوا مثله ، فيعلموا مالي من الاختصاص والعناية !

فوجمت ، وقالت : هذا شيء عمله الخليفة لنفسه ،ومقداره عظيم ، وفى هذه القرية مئآت الالوف من الدراهم ، ولا احسب جاهي يبلغ اليها . وكيف يستعار من خليفة شيء ؟ ومتى سمع بخليفة يعير ؟ ولكن انا أسأل السيدة !

وندع الان ابا القاسم يقص علينا ماحدث قال :

فلما كان الليل جاءتني ، فقلت : ماالخبر ؟

قالت : كل ماتحب ، قد جئتك بالقرية هبة لا عارية . وجئتك معها بصلة ابتدأ بها أمير المؤمنين من غير مسألة احد.

فقلت : ماالخبر ؟

قالت : مضيت وانا منكسرة القلب ، آيسة من ان يتم هذا . فدخلت على السيدة ، على هيئتي تلك . فقالت : « من اين ؟ »

قلت : من عند عبدك يوسف . وهو على ان يطهر ابنه غدا .

قالت : اراكَ منكسرة !

قالت : ببقائك ما انا منكسرة !

قالت : ففي وجهك حديث !

فقلت : خيــر !

قالت : بحياتي عليك ، ماذاك ؟

قلت : قد شكر ماعومل به ودعا ، وقال انــي احــب ان اتشرف بما لم يتشرف به احد قبلي ليعلم موضعيمن الخدمة.

قالت : ومــا هــو ؟

قلت : يسأل ان يعار القرية ليتجمل بها ، ويردها من غد !

فأمسكت ، ثم قالت : هذا شيء عمله الخليفة لنفسه ،كيف يحسن ان يــرى فى دار غيره . وكيف يحسن ان يقـــال ان الخليفة استعاره منه بعض خدمه ثم استرده منه ؟ وهـــذا فضيحة ، وليس يجوز ان اسأله هبتها له ، لاني لاادري ان كان قد ملها وشبع منها أم لا . فان كان قد ملها ، فقيمتها عليــه هينة . وان كان لم يملها لم ارض ان افجعه بها ، وسأسبـــر ماعنــده في هـــذا !

ثم دعت بجارية فقالت : « اعرفوا خبر الخليفة ! » فقيل لها انه عند فلانة ، فقالت (اي لنظم) : تعالي معي ! فقامت ، وانا معها وعدة جوار . حتى دخلت . وكانت عادته اذا رآها ان يقوم لها قائما ، ويعانقها ، ويقبل رأسها ، ويجلسها معه فى دسته (١) . (قالت نظم) : فحين رآها قام واجلسها معه وقال : ياستي - وهكذا كان يخاطبها - ليس هذا من اوقات تفضلك وزيارتك !

فقالت : ليس من أوقاتي !

ثم حدثته ساعة ، وقالت : يانظم ! متى عزم ابنك يوسف على تطهير ابنه ؟

قلت : غدا !

فقال الخليفة : ان كان يحتاج الى شيء آخر أمرت به .

فقالت : هو مستكف داع . ولكن قد ألتمس شيئا ماالستحسن خطابك فيه .

قال اريد ان اشرف على اهل المملكة كلهم ، ويرى عندي مالم ير فى العالم مثله .

قال الخليفة : وما هو ؟

قالت : ياسيدي يلتمس ان تعيره القرية ، فاذا رآها الناس عنده ارتجعت .

---

(١) الدست كلمة معربة معناها صدر البيت

فقال : ياستي ، والله هذه ظريفة . يستعير خادم لنـــا شيئا ، وتكونين أنت شفيعة ، فأعيره ثم ارتجعه . هذا من عمل العوام لا الخلفاء . ولكن اذا كان محله من رايك ، هذا ، حتى قد حملت على نفسك بخطابي ، وتجشمت زيارتي ، وانا اعلم انه ليس من أوقات الزيارة ، فقد وهبت له القرية ، فمري بحملها بجميع آلاتها اليه ، وقد رايت ان اشرفه بشيء آخر : يحمل اليه غدا جميع وظائفنا ، ولا يطبخ لنا شيء البتة ، بل يرسل اليه ويؤخذ لنا سمك طري فقط .

وامرت السيدة بنقل القرية ، فتملكها ابو القاسم . (١)

فهذه قصة بسيطة ، على ان فيها كثيرا من حياة القصــر زمن المقتدر ، وهي تبين لنا طرق الكلام والمحادثة ، وطرق تآمر النساء على الخليفة ، وطرق تبذير الاموال . على ان اعظم هذه الاشياء كلها ، هو تأثير نظم والسيدة فى الخليفة ، وانقياد هذا الخليفة للنساء ، وتركه الامور لهن يصرفنهاكيفما شئن واردن.

(١ المنتظم لابن الجوزي ، ج ٦ ، ٧٤

- ٣ -

اعراس الخلفاء وولائمـــهم

الحديث عن الافراح والولائم وحدها ، بصورة عامة ، لـذ طريف تحن اليه النفس وتهش له الروح ويروق الخاطر ، لانه حديث فيه جذل واور ، وضحك وسرور ، وجمال وعطـور ، ونحن نحب سماع ذلك لمـا نشعر به عند سماعه . فما ظنكم اذا شع الفرح ، ورف النور ، واشرق الجمال ، وفاح العطـر ، فى قصور بغداذ التي زعموا انها فرت من الفردوس ، فأتـت حفافي دجلة لتفرق فى النعيم ، وتتلألأ بالحسان ، وتزهـــر بالغلمان ، وتصفق للعزف والشعر ، وتطرب للحب والانغام ؟

الحق ان اعراس بغداد وولائمها كانت افراحا ماطاولتهـا افراح ، فى النضارة والفخامة ، أو فاضلتها فى الروعة والاناقة ، او دانتها فى البهجة والضخامة . ومن اجدر من بغداد العروس، بتقديم اجمـل الاعراس واعجب الولائم .

واذا كان الحديث عن الاعراس لذا طريفا ، فالأطرف من التحدث عنها ، ان يشهدها المرء ، فتغمره بنورها ، او ان تصور له فيحس لمرآها بنشوة صافية . ولهذا عني الغربيون بتصوير

مباهج الاعراس الكبيرة ، واستمد منها الفنانون والمصورون روائع خالدة ، ماتزال تزدان بهاقي الغرب المتاحف ودور الاثآر .
فقد رسم « رافائيل » عرس « ابنة الدوبراندين » الحسناء الفلورنسية ، باروع ماصور به مصور عرسا . وصور عرس « روكسان » زوج الاسكندر المقدوني ، ولكن اروع الواحه هو عرس « بسيشه » الفتاة الجميلة التي تزوجها اله الحب ، كما تزعم الاساطير . ورسم « رامبرندا » عرس « جانسون وكريبوز » . وكذلك رسم فنانون آخرون اعراس ألاغريق .
فصور « جان درين » عرس « بيليه » ابي آشيل البطل و « تيتيس » احدى عرائس البحر . واهتم آخرون بتصوير اعراس اخرى استمدوها من التوراة ، كعرس اسحق ، ويعقوب . كما صور غيرهم الاعراس الفلاماندية ، والالزاسية والهولاندية ، والبريطانية ، واعراس فينسيا ، ولشبونة ، وباريس ...

وما اعلم ان العرب تركوا لناصورا تمثل اعرأسهم الماضيات، رغم انهم برعوا في التصوير براعة كبرى ، فزينوا جدران قصورهم بتصاوير شتى ، تعجب لحسنها العين ، وتدهش لاتقانها النفس . وما ندري فلعلهم صوروا مباهج ترفهم على جدران قصورهم ، فعفاها كر العصور ، وكثرة الفتن .

على ان كتب الادب والتاريخ ، قد حفظت لنا اوصافا دقيقة لاعراسهم وولائمهم ، تغنينا عن ألالواح والصور .

فمنذ بدات حقبة الترف ، زمن المهدي ، ظهرت روعة الافراح . فقد كانت الثروة قد اتسعت ، وكان الفرس قد تغلغلت فى البلاد . وكان المهدي نفسه لايحفل بالمال ولا يمسكه ، وكان ميالا للبذخ والطرب واقتناص اللذات . فلذ بما شاء ، وترف بما اراد ، ولها بما احب . ولعل بذخه وترفه يظهران فى الزفاف الذي اقامه لابنه هارون الرشيد ، عندما تزوج زبيدة . فقد احتفل بذلك احتفالا كبيرا ، واستعد له استعدادا عظيما ، وانفق عليه خمسين الف الف درهم . فماذا صنع ؟

لقد اقام الزفاف فى قصر الخلد ، على ضفاف دجلة ، ودعا الناس قبل شهور من الآفاق ، فاقبلوا مسرعين ، يمنون انفسهم بنوال كثير ، ومقام طيب . فاضافهم المهدي . واتى بالالآت المختلفات : اتى بالآنية المصنوعة من الذهب والفضة ، وبالفرش والبسط الارمينية الفاخرة ، هذه البسط التي كان الوليد بن يزيد يحبها ، ويفرش بها ارض مجالسه ، ويزين بها حيطان قصوره ، والتي كانت آفخر ما يهدى للخلفاء ، والتي قال عنها ماركوبولو الرحالة ، لم تر عيني اجمل ولااجود منها . واتى ايضا بالثياب المطرزاتبالذهب ،وبالطيب المختلف الالوان والضروب ، وبالجوهر الذي ملأ به الصناديق الكبار ، وبالحلى المرتفعات الاثمان . وملأ القصر باجمل الوصائف والخدم والغلمان .

فلما كانت ليلة الزف ، البس زبيدة العروس قميصا كله

من الدر الكبار ، مما لم ير مثله ، ولم يقف احد من المقومين له على قيمة لنفاسته . والبسها بدنة امراة هشام بن عبد الملك ، والبدنة ثوب كله من الذهب ، لايدخل فيه من الغزل سوى اوقيتين ، وينسج سائره بالذهب ، وزينها بالحلى حتى لم تقدر على المشي لكثرة ماعليها من الجوهر . ويقول متز : « ان هذا شيء لم يسبق اليه اكاسرة الفرس ولا قياصرة الروم ولا ملوك الغرب » . وجاء نساء بني هاشم ، فكان يدفع لكل واحدة منهن ثوب وشي ، وكيسا فيه دنانير ودراهم ، وآنية ملأى بالفضة وكان الخدم يملؤن اواني الذهب بالدراهم واواني الفضة بالدنانير ثم يدفعون ذلك الى وجوه الناس ، ويردفونه بنوافج المسك وقطع العنبر (١) .

وبذخ المهدي بذخا بهر الناس . فقد خلف له المنصور والهادي الاموال الكثار ، فترف واتلف . وكان هذا الزفاف اول ما تألق من سعد الرشيد . ومات المهدي وخلفه الرشيد فرتع فى بحبوحة من العيش . وامتد السلطان ، وحملت اموال الدنيا الى بغداد ، لا لتنفق فى وجوه الخير دائما ، بل لتفرق على الفرس ، والشعراء ، والقصاد ، وتخبأ لتنفق في زفاف آخر عظيم .

ولعل من الطرافة ان نصف ، قبل ان ننتقل الى ألوان اخرى من الافراح ، وصف عرس قام فى فرنسه ، فى القرون الوسطى،

---

(١) انظر الديارات (دير السوسي)

اي فى الحقبة نفسها ، التي كانت تجري فيها تلك الاعراس فى بغداد ، لتقايس بين اعراسنا واعراسهم .

فقد كانت العادة فى بلاط ملوك فرنسه اذا احتفلوا بزفاف له شأن خطير ان يرقصوا رقصة المشاعل ، وهي أن يمسك كل مدعو الى الحفلة الملوكية ، بشمعة طويلة بيده ، فيرقص ويقفز وهي تشتعل . وقد قص الاخباري « فرواسار »وصف عرس من تلك الاعراس ، حضرها الملكّ شارل السادس :

قال : اقيمت الحفلة فى القصر الملكي لزفاف احدى وصائف الملكة « ايزابود بافيير » الى رجل من الاشراف فعهد الـــى فارس نورماندي بترتيب الحفلة . فاراد الفارس ان يتفنن فى الرقص ، ابتغاء مسرة الملكة ، وطلبا لمرضاة النساء . ففكر ان يلبس المدعوون لباس الحيوانات المتوحشة ، من جلود عتيقة ، وصوف غليظ ، وشعر ملبد ، وشرط ان لايشترك فى الحفلة الا من ألصق بجلده شعرا او صوفا ، وتشبه باحد الحيوانات . ونفذت الفكرة ، ولبس النساء والرجال الجلود والصقوا بهـا الشعور والصوف ، وغطوا بها اجسامهم من اقدامهم الـــى رؤوسهم بحيث يحسب الرائي ، ان المـدعوين ، وحوش فارة شريدة . ولبس الملك شارل السادس مالبسه غيره ، وقلده اربعة من اكبر رجال البلاط .

وبدأ الرقص . واخذوا جميعا يرسلون ، وهم يقفـــزون ويرقصون ، اصواتا يقلدون بها اصوات الحيوانات والوحوش،

حاملين تلك المشاعل بايديهم . وكان كلما زاد عواء الواحد منهم او نباحه او زئيره ، واتقن تقليد الصوت ، ازداد اعجـــاب الحاضـرين بــه ... وبينما كانت الوحوش تصرخ وترقص بفرح وسرور ، مس احد المشاعل ذنب احـد الحيـوانات . فاشتعل وهو لايشعر . فلما احس ، ازداد قفزانه فـــزاد لهبانه . وسرت النار الى الراقصين ، فازداد قفزهم وصراخهم، وزاد سريان النـار فيهم ، فاحترقت جسوم بعضهم ، ولـم ينـج منهم الا القليـل .

ويقول فرواسار ان الملك شارل السادس ، ظهرت عليـــه علامـات الجنون منذ تلك الليلة (١) .

والى جانب هذه الاعراس البغدادية نجد ولائم اشد روعة ، واكثر جمالا . يحسبها القارىء خيالا ، وهي حقيقة .

من هذه الولائم الرائعة ، وليمة صيد اقامتها حمنة بنـت عبد الله الهاشمي للمأمـون . وكانـت حمنة آدب نساء بني هاشم ، فصيحة اللسان ، حلوة الكلام ، كثيرة المال . وكانت تهوى المأمون . فذكروا من خبرها ، ان المأمون كان جالســا يوما فى ايوان واسع قد ابتدعه لنفسه ، وصور على حيطانـه صيد البر والبحر ، واقام فيه اربعمائة وصيفة ، بقراطق من حرير ، بقدود واحدة : مئتين عن يمينه ، ومئتين عن يساره .

---

(١) انظر :

F. Brento, La Société au Moyen Age (Flammarion)

وكان عنده يحي بن اكثم كبير القضاة . فدخلت عليهما حمنة . فقال لها المأمون : « هل كان لابيك ياحمينة ، او لاحد من الخلفاء ، مثل هذا الايوان ؟ »

قالت : « متعك الله به وعمره بك . ان اجبت حمنة ، اجلستك فى مجلس ، لم تجلس فى مثله قط ، واصادتك صيدا لم تصد مثله قط . »

قال : « ياحمنة ، قد اجبتك الى ماسألتني ، وسآتي مع يحي غدا . »

فلما كان الغد ، ذهب المأمون ويحيى ظهرا الى دار حمنة . فأقبلت نحوهما بنفسها تستقبلهما . ومشت بهما الى بيت فى بستان عظيم ، قد حمل على اربعة اعمدة من الرخام . فدخلاه واذا فى صدر البيت اشعار غزلية منقوشة بالدر والجوهر ، وقد فرش بالفرش الارمني ، الموشى ، المنقوش باللآلىء. وفى جنباته مطارح الديباج الاخضر المحشوة بالريش. وكانت روائح المسك والعنبر ، والند والعود ، الموضوعة في اوان ذهبية فضية ، تفوح ، فيعبق ارجها . فدهش المأمون لجمال البيت وحسنه . فاستراحا . ثم اخرجتهما الى ميادين انشئت حول البيت ، فيها انواع الرياحين من ورد وسوسن وبنفسج ، واذا بمائدة قد نصبت ، وعليها انواع المآكل الفريدة . فجلسوا يأكلون . واعجب المأمون فقال : والله ماطعمت مثل هذا الطعام قط !

ثم امرت بنوادر الفاكهة ، فحملت من البستان ، واقبلت جاريتان عليهما جباب الوشي المنسوج بالذهب ، وعلى راسيهما تاجان مكللان بالجوهر . فجلستا تضربان وتغنيان . فانتشى المأمون ، وصاح : هذه هي الجنة !

فلما طربا قال يحيى : ياامير المؤمنين ، الا نطوف في البستان المجاور ؟

فقاما ومعهما حمنة . وكانت حمنة قد زينت هذا البستان بأحسن ماتقدر عليه ،ووحملت اليه الاشجار منجميع الاقطار، ووشته بازاهير شتى ، واعاشيب مختلفات . واتخذت فيه الوانا من الطيور كالهزاز ، والعنادل ، والشحارير ، والقماري ، وتبخترت فى جنباته الطواويس .. فأخذوا يستروحون أرج الزهر ، ويمشون هونا فى حواشي البستان ، ويتمتعون بجمال دجلة . فقالت حمنة : الا تصيد ياامير المؤمنين ؟

قال : بلى !

وانفتل مع يحيى الى الصيد . وما كادا يتوغلان فى البستان ليصيدا الطيور ، حتى ظهرت فجأة مائة وصيفة من وصيفاتها الحسان ، بطرر واحدة ، وشعور واحدة ، لابسات ثيابا موشاة كالازاهير . وفى اوساطهن مناطق الذهب ، فانطلقن ... كالعصافير بين الاشجار . واخذن يقطفن النور ويتضاربن بالرياحين ، ويرسلن الضحكات . فشده المأمون وزاغ بصره ، واعجب بما راى . وهم يحيى ، قاضي القضاة ، ان يلحق بهن

ففررن منه ، وعدون من هنا وهناك ، يختبئن تارة ويظهــرن تارة ، فى ظلال الكرم المعرش بين الرمان والريحان !

وفتن المأمون بذوق حمنة ، وظرفها ، وبراعتها ، وبلوغهــا فى التنسيق والترتيب الغاية فأمهرها من ساعته الــف الــف دينار ، واقطعهــا مائــة مــن منتخبات الضياع ، واضحــت زوجــــا لــه (١) .

هذيهي الوليمة كماوردت. سقتها لتروا مافيهامن البراعة والظرافة والذوق. ولكني احسب ان هناك ماهو اروعواحلى.

هناك الحفلة التي اقامها المتوكل على آلله لاعذار « طهور » ابنه المعتز . والمعتز كان محببا الى ابيه للطفه وفرط جماله . وقد اقام المتوكل هذا الطهور فى قصر اسمه بركوأرا . وهذه كلمة فارسية معناها ، على ماقيل لي ، قصر الهناءة . وكــان من احسن ابنية المتوكل واجلها . بلغت النفقة عليه عشــرين مليون درهم . فكانت حفلة الاعذار نادرة ، اقيمت فى ايــوان القصر ، وكان طوله مائة ذراع اي مايقرب من خمسة وسبعين مترا ، وعرضه خمسون . فأمر المتوكل وزيره الفتــح بـــن خاقان ان يلتمس فى خزائن الفرش ، بساطا لهذا الايوان يكون بطوله وعرضه . فلم يوجد فى مكان الا فيما اخذ من امتعــة

---

(١) من عيون التواريخ لابن شاكر (مخطوطة الظاهرية) خلافة المأمون

هشام بن عبد الملك الاموي. وكان بساطا من الحرير والذهب. قوم بعشرة آلاف دينار . فمد فى الايوان . ونصب للخليفة فى صدره سرير يرى الناس منه . ومد بين يديه اربعة الاف مرفع ذهب مرصعة بالجوهر ، فيها صور شتى من العنبر والمسك . وخصص لكل من المدعوين من الامراء ، والقواد ، والقضاة ، والشعراء ، والندماء ، مكان . ووقف فى صحن الدار امام الايوان ، اربع مائة جارية . ونثر فى الايوان ، وفى صحن الدار خمسة آلاف باقة نرجس ، وعشرة آلاف باقة بنفسج . فكان منظر الجواري الحسان ، والبساط الحرير الرفاف ، والنرجسات المحدقات كالعيون الفواتر ، والبنفسجات الدقاق اللطاف ، من ابهج المناظر وابهاها . وفى هذا كله من الذوق كثير .

وحمل التفاح من الشام الى بغداد لهذا الاعذار . فوضع فى صحن الدار فى الف سلة من خيزران ، هو والليمون والأترج .

واقبل الناس . فجاء الامراء ، كأولاد الرشيد ، والمأمون والمعتصم . وتبعهم القضاة والقواد . ثم جاء الندماء ، وكان فيهم ، ابن المنجم ، وابنا حمدون . ثم اقبل المغنون والزامرون والدفافون ، كعمر بن بانة ، وابي حشيشة الطنبوري ، وزنام الزامر ، وابن الحفصي . واقلبت المغنيات لابسات متزينات ، وفيهن بدعة التي شريت بالاف الدنانير .

وامتلأ الايوان بالاشراف والكتاب والناس فأكلوا ماكل

غريبة . وكان امام كل رجل قفة صغيرة. فكان الخدم يطوفون فيملؤونها بالدراهم والدنانير . فيأخذها الرجل ، ويضعها في كمه او جيبه ، وكلما فرغت ، ملأها الخدم . فكان اذا اثقل الواحد منهم مااجتمع فى كمه ، اخرجه الى غلمانه ، فدفعه اليهم ، خارج القصر ، وعاد الى مجلسه يملأ جيبه وكمه مرة اخرى ، حتى اذا انصرف ، اعطى ثلاثة أثواب ، وحمل على فرس او برذون الى داره .

واجتمع الجواري والخدم ، من البيض والسود ، والغلمان ، والقهارمة ، بعد انتهاء الوليمة ، فنثر عليهم عشرون مايون درهم . ثم اعتق المتوكل ألف عبد ، ووهب قصر الهناءة للمعتز وانتقل الى الجعفري ، وكان ماوصل حرملة المزين ، ثمانون الف دينار ، سوى المصاغات والخواتيم والجواهر .

وكان ما انفق على هذا الاعذار ستة وثمانون مليون دينار !

وقد كانوا يقولون : « ان زفاف الرشيد هو دعوة الاسلام » فلما شهدوا زفاف المأمون قالوا : « بل هذه دعوة الاسلام » ، ولما راوا طهور المعتز قالوا : « هذه دعوة لم يكن قبلها مثلها ولن يكون ! »

على انه ان لم يقلدوا مافعل المتوكل فى هذا الاعذار ، فقد اخترعوا الوانا اخرى من المفاتن ، فاقت وليمة المتوكل . فقد كانوا كلما ازداد بهم الترف ، واستفاضت الثروة ، اوجدوا اشياء لاتخطر على البال ، ولم نر او نسمع بمثلها .

وقد يأتي بهذا من ليس بخليفة أو وزير ، بل متول من المتولين على الدواوين . فقد كان للعباس بن الحسين دار يجتمع فيها دجلة والفرات . فأنتهى خبرها الى احمد بن بوية ، فأحب النظر اليها فدعاه العباس واولم له .

عمد العباس بادىء بدء لداره ، فجدد فرشها كله ، واتى بالديباج السندسي المنسوج لها بقدر طولها وعرضها ، المثقل بالذهب . واتى بالارمني الرفيع وبالخز المرقوم ، وغير ذلك من الفرش .

فلما فرغ من ذلك ، دعا احمد بن بويه . وكان الوقت زمن النيروز الفارسي وقد زادت المياه ، وتكامل النبت ، ونور الشجر ، وطلع الثمر . وكان اصطنع فى بستانه المحيط بالدار على البركة العظيمة التي يجتمع فيها دجلة والفرات ، قصرا مرتفعا ذا اربع طبقات من السكر . وكان لهذه الطبقات نوافذ وابواب ، وكانت هذه الابواب تنفتح فتخرج منها صور من السكر على هيئة الجواري والغلمان ، بصنوف الملاهي ، في احسن الملابس . فكانت تدخل وتخرج ، وتذهب وتجيء . فلا يشك الناظر انه قصر صحيح . وجعل العباس على شرفات الطبقات صورا من انواع الطير والوحش ، كالعنادل والهزار ، والسباع والفيلة ، كل ذلك من السكر المموه بصنوف الاصباغ والنقوش والذهب ... وكل طائر او حيوان يرسل صوتا مثل صوته . فلما كان يوم الدعوة ، امر بان يجمع مافي بغداد

من الورد . وجعل فى اسفل دجلة حبلا كالسد . واتى بالورد فنثره فوق دجلة ، حتى غمر صفحته اميالا . واقبل احمد ابن بويه فى سميرية يشق الورد ، فلم ير احسن من ذلك المنظر .

وتلقى العباس ، احمد بن بويه وبنيه ، فطاف بهم فى جنبات البستان . فاعجبوا بقصر السكر اي اعجاب . ثم اسمعهم المطربين والمسمعات ، ثم اطعمهم ماكل تفوق كل وصف .

ولما اراد احمد بن بويه ان ينصرف ، قدم له العباس آنيتين من ذهب وفضه فى الاولى الف دينار ، وفى الثانية الف درهم . ثم فرق الاموال على القواد ، ثم امر بنهب قصر السكر فنهبه الحشم والغلمان .

... فتلك صور ضاحكة لافراح بغداد وولائمها ، ترف فيها الحضارة ، ويطل البذخ ، وتتجلى الفتنة .

- ٤ -

الورد فى حياة الخلفاء

الورد جمال الربيع ومنبع الطيب وحلية الرعابيب . غـرم به الشعراء فجعلوه أبدان العذارى ، وخدود الملاح ، وانفاس الحبيب ، واتخذه الاوائل من النصارى رمزا ينثرونه مـع الزهر على قبور الشهداء . وهو الى ذلـك مهـوى الانفـس الرقيقة : تهش له الروح ويهفو آلى مرآه القلب ، فان لـونه الصافي ، وطيبه المسكر ، ورقته الناعمة ، لما يذهب الشجن ، ويهز الحس ، ويناغى القلوب .

لاجرم ان الفتنة بالورد لاتصدر الا عـن وفـرة الشعور ، ورهافة الذوق ، وغضوضة الطبع . فاذا أتيح لمن أوتي ذلـك مباهج النعيم ، ولذاذات الترف ، كان للورد عنده المحل الاول والشهوة الكبرى ، وتعجل بالتمتع به لان ايامه ، كما يقولون ، قصار كأيام الهوى ، ونفحه مسكر كفماغم الحب .

والباحث فى تاريخ العصر العباسي يجد ان الترف والنعيم هذبا النفوس وارهفا الاحساس ، وان اختلاط العرب بالفرس الذين كانوا يحتفلون بالورد ، ويقيمون له الاعياد ــ رفعهم الى الاعجاب به وتمجيده .

ذكره الشعراء فمدحوه تارة وهجوه اخرى . واتخذته القيان حلية يزين به قدودهن ، ويعطرن بعطره اجسامهن ، ويفرحن به احبتهن وآلافهن (١) ونثره العشاق على مفارش الحب واتخذوه رسائل الحب الى الحب ، كأنه كلمات حلوة ناعمة فيها الشوق والروح والحنين . وحفل به بعض الخلفاء فكانوا يفرشون مجالسهم بفرش كالورد او ينثرونه في الفضاء والهواء ، او يشربون على منظره وارجه .

وقد الفوا عن الورد الرسائل الحسان : فمنها كتاب « العقد بفضل الورد » لمحمد بن احمد الوشاء (٢) وكتاب « المفاخرة بين الورد والنرجس » لاحمد بن ابي طاهر (٣) وكتاب « الورد » للثعالبي ، وكتاب « الانوار والثمار في الورد والنرجس وجميع الانوار ، وما ورد فيها من الاشعار . وما جاء فيها من الآثار والاخبار » لمحمد بن عمران المرزباني وغيرها .

والبحث يطول اذا فصلنا ، ولذا فسنقصر كلامنا على ما اثر عن الخلفاء العباسيين في شغفهم بالورد وولوعهم به ، فان في ذلك طرافة ومتعة ، وتبيانا لناحية لم يطرقها الباحثون ، وحدها ، بالتفصيل .

---

(١) انظر : عشق القيان للجاحظ
(٢) الوشى ، ج ٢ ص ١٣٨
(٣) معجم الادباء (مرغوليوث) ج ١ ، ١٥٥

ذكر الطبري (١) ان يعقوب بن داود وزير المهدي ، دخل على الخليفة يوما ، فاذا هو فى مجلس مفروش بفرش مورد يشرف على بستان قد اكتسى بالاوراد والازهار . فكان ذلك كله موردا بشبه فرش المجلس الذي كان فيه . قال يعقوب : فما رايت احسنَ منه ، ثم دخلت جارية مارايت احسن منها ولا اشطر قواما ولا احسن اعتدالا ، وعليها ثياب من نحو لون الورد !

فهذا التوافق بين لون الفرش ولون الزهر ، ولون الثياب غاية فى الذوق والفن ، ثم انه فى اختيار لون الورد البهيج لأولئك جميعا رهافة حس ونعومة طبع ، قد تصادفهما في الغرب ، فى هذه الايام .

وبلغت فتنة الرشيد بالورد مبلغا شديدا . دخل عليه ابراهيم الموصلي امير الغناء يوما وعنده جارية أديبة شاعرة ، وبين يديه طبق ورد . فقال الرشيد : ياابا اسحاق ، اما ترى حسن هذا الورد ونضارته ؟

فقلت : لزيك ياامير المؤمنين احسن منه !

فقال : قل فيه شيئا !

فقلت :

كأنه خد موموق يقبله فم الحبيب، وقد ابدى به خجلا

---

(١)تاريخ الطبري ، اخبار المهدي

فقالت الجارية فى الحال :

كأنه لون خدي حين تلمسني كف الرشيدلأمر يوجب الخجلا

فسر الرشيد سرورا عظيما ، وقال : قم ياابا اسحاق ... فقد حركتني هذه الجارية بخلابة كلامها وحسن جوابها ! (١) .

وجميل جدا ان يكون الورد حديث الخليفة وندمائه ،ومثير لذته وطربه ومهوى نفسه وروحه . ولا يتاح هـذا الا لمـن هذبته الحضارة ، وفتنه الجمال فى كل صورة من صوره حتى فى الورد العطر البهيج .

وكان المأمون معجبا بالورد يحبه ويهواه . رفع اليه مـرة ان حائكا يعمل السنة كلها لايتعطل فى عيد ولا جمعة . فـاذا ظهر الورد طوى عمله ، وغرد بصوت عال :

طـاب الزمان ، وجـاء الورد فاصطبحـوا

مـا دام للـورد ازهـار ونـوار

فاذا شرب مع ندمائه على الورد غنى :

اشرب على الـورد مـن حمراء صافية

شهرا وعشرا وخمسا بعدهـا عـددا

ولا يزالون فى صبوح وغبوق مابقيت وردة . فاذا انقضى الورد عاد الى عمله وغرد :

فان يبقني ربي الى الورد اصطبح

وأن مت ، والهفي على الورد والخمر !

---

(١) ثمرات الأوراق ج ١ ، ٢٤

فقال المأمون : لقد نظر هذا الرجل الى الورد بعين جليلة فينبغي ان نعينه على هذه المروءة . فأمر ان يدفع له فى كل سنة عشرة آلاف درهم فى زمن الورد . (١)

كان المأمون الى جانب سعة عقله وغزارة علمه ، حلو النفس رقيق الحاشية . ولا شيء ادل على هذا من الحادثة التي ذكرناها فلقد عد حب الورد والميل اليه والشراب على منظره وطيبه من المروءة ، واعان صاحب هذه المروءة ليمتع نفسه بالورد وبالخمر ماشاء له طبعه المرهف وذوقه الرقيق .

ذكر الاتليدي ان المأمون شرب يوما ومعه يحيى بن اكثم . فمال الساقي على يحيى حتى وقع سكران . فأمر المأمون ان يلقي عليه الورد والريحان حتى يدفن فيه كأنه ميت . وصنع بيتين من الشعر ، وقال لمغنيته : خذي العود وغني على راسه ، فغنت :

ناديته وهو حي لاحراك به مزمل فى ثياب من رياحين

فقلت « قم » ، قال « رجلي لاتطاوعني »

فقلت « خذ » قال « كفي لاتواتيني » (٢)

وكان منظر الورد ، وما قيل فى الورد ، كانا يثيران احساس المأمون فيجود على حامل الورد او قائل الشعر فيه ، او مغنيه

---

(١) مطالع البدور ، ج ١ ، ٩٣

(٢) اعلام الناس للاتليدي ، ص ٩٨

بالمال الكثير ، جود من لايخشى عاقبة ولا يحسب حسابا .

قال اسحاق بن ابراهيم :

دخلت يوما على المأمون فى زمن الورد ، فقال لي : يـاابا اسحاق !هل قلت فى الورد شيئا ؟

قلت : أقول بسعادة أمير المؤمنين !

وفكرت ساعة فلم يفتح علي بشيء . فخرجت من عنده وبقيت ليلتي ساهرا متفكرا فلم يفتح علي بشيء . فلما اصبحت غدوت الى دار الخلافة . واذا غلام الفضل بن مروان على بـاب المأمون ، ومعه سبع وردات ، على صينية فضة ، ينتظر الاذن فى الدخول بها عليه . فسألته المهلة بها قليلا ، فامتنع. فسألته ثانيةوقلت : لك بكل وردة دينار ان امهلت !

فأجابني الى ذلك ، فدفعت له سبعة دنانير ، واحببت الا يصل اليه الورد قبل وصول الشعر . وخرجت اقصد الازقة لعلي اسمع شيئا من احد او ينبعث خاطري ولو ببيت واحد ، فبينما انا كذلك ، واذا برجل يغربل التراب وهو ينشد :

اشرب على ورد الخدود فانه   ازهىوابهى ،فالصبوح يطيب

ماالورد احسن منتوردوجنة   حمراء جاد بها عليكحبيب

صبغ المدام بياضها فكأنه   ذهب بقالب فضة مضروب

فلما سمعته نزلت عن دابتي ، ودخلت مسجدا بالقرب منه فطلبته وسألته ان يمليها علي . فاعتل وقال : ان اردت فأعطني بكل بيت عشرة دنانير !

فدفعتها له ، واستمليتها منه ، وعدت ، ودخلت انا وغلام الفضل . واذا بالمأمون يشرب من وراء الستار ، فلما جسست العود قال لجواريه : اسكتن فقد جاء اسحق !

فقدمت ذلك الورد بين يديه ، وانشدت الابيات ، فسمعت الشهيق والزفير من وراء الستار . ثم اخرج الى بدرة فيها عشرة آلاف درهم . فاعدت الابيات فأخرج الى بدرة ثانية ، فاعدت الثالثة ، فاخرج بدرة ثالثة . فخرج الى خادم وقال : يقول لك أمير المؤمنين : لو دمت على انشادك ، لدمنا على البدرة ، ولو الى الليل ... (١)

هذا ماكان عليه المأمون ، اما المتوكل فكان اشد الخلفاء العباسيين شغفا بالورد . والحق ان حياته الخاصة تدل على رقة ذوقه وطرافة لهوه ، وكأنه كان فنانا شاعرا ، وان لم يؤثر عنه قول الشعر .

وقد بلغ من فتنته بالورد انه استأثر به وحده وحرمه على الناس . وكان يلبس فى زمن الورد الثياب الحمر ، ويأمر بالفرش الاحمر كالورد ، وكان الورد لايرى الا فى مجلسه ، وكان يقول : « انا ملك السلاطين ، والورد ملك الرياحين ، وكل منا اولى بصاحبه » (٢)

---

(١) اعلام الناس ، ص ١٠٥

(٢) مطالع البدور ، ج ١ ، ٩٣

ووجدنا فى كتاب الديارات للشابشتي ، وكنا حققناه وعلقنا عليه ، أن المتوكل شرب فى بركوارا . وهو قصر من قصوره . فقال لندمائه « ارايتم ان لم تكن ايام الورد ، لانعمل نحن شاذ كلي ؟ »

(والشاذ كلي عيد يمهرجون فيه ميلاد الورد)

فقالوا : ياامير المؤمنين : لايكون الشاذكلي الا بالورد !

فقال : بلى . ادعوا الي عبيد الله بن يحيى !

فحضر ، فقال له : تقدم بان تضرب لي دراهم فى كل درهم حبتان ! (من فضة)

فتقدم عبيد الله فى ضربها فضربت ، وعرفه الخبر ، فقال : اصبغ منها الحمرة والصفرة والسواد ، واترك بعضها على حاله !

ثم تقدم الى الخدم والحاشية ، وكانوا سبعمائة ، بان يعد كل واحد منهم قباء جديدا وقلنسوة على خلاف لون الورد وقلنسوته ، ففعلوا . ثم عمد الى يوم تحركت فيه الريح فنصب له قبة لها اربعون بابا فانبطح فيها ، والندماء حوله . ولبس الخدم الكسوة التي اعدها ، وامر بنثر الدراهم كما ينثر الورد ، اولا اولا . فكانت الريح تحمل الدراهم فتقف بين السماء والأرض كما يقف الورد .

قال : « فكان ذلك اليوم من احسن ايام المتوكل واظرفها »

وكان الورد ،الى ذلك ،يبعث الشعرفى صدر بعض الخلفاء.
ذكروا ان الواثق كانلايشرب الا على الورد والريحان. وذكروا ان خادمه مهج ناوله ذات يوم وردا وهو يشرب فأنشد :

حياك بالنرجس والورد   معتدل القامة والقد
فألهبت عيناه نار الهوى   وزاد فى اللوعة والوجد
املت بالملك له قربة   فصار ملكي سبب البعد
ورنحته سكرات الهوى   فمال بالوصل الى الصد
ان سئل البذل ثنى عطفه   واسبل الدمع على الخد
مولى تشكى الظلم من عبده   فأنصفوا المولى من العبد

فأجمعوا انه ليس لاحد من الخلفاء مثل هذه الابيات في الجودة . (١)

***

فهذه طرف عن شغف بعض الخلفاء العباسيين بالورد ، وليس هذا محل الاستقصاء ، وهي تدل على مبلغ الحضارة والرقي ، وعلى رهافة الذوق وحب الازهار ، سقتها لما فيها من لذة وطرافة وجمال .

---

(١) أخبار الخلفاء للسيوطي ، ص ١٣٧

- ٥ -

الغلمان في حيـــاة الخلفــــاء

نحن نعلم أن النساء اوتين حظا ومكانة فى قصور الخلفاء العباسيين. واوتين ايضا حظا ومكانة فى قلوب الخلفاء انفسهم. فحكمن وعبثن وسقين اولئك الخلفاء الهوى ، واذقنهم من طيبات اللذائذ ماخلب عقولهم وفتنهم . وعرفت اسماء بعض هؤلاء النساء ، فكان لها رنين وكان لها تاريخ .

فسحر وضياء ، وذات الخال وهيلانة محبوبات الرشيد . وعريب محبوبة المأمون ، ومتيم محبوبة المعتصم ، وفريدة عشيقة الواثق ، ودريرة محبوبة المعتضد وغيرهن من الحسناوات الفاتنات ، كان لهن اثر فى قلوب الخلفاء مايعادله اثر ، وكان لهن فى تاريخ القصور شأن كبير قد لا نعرف عنه الا القليل .

ولقد انصرف نفر من الخلفاء الى النساء ووجدوا فيهن مايشتهون ، ولكن آخرين انصرفوا الى الغلمان او جمعوا بين النساء والغلمان معا .

ولعل الامين كان اول من عني بالغلمان . وهو الذي قدمهم

وآثرهم ورفع منازلهم . وصدف عن الجـواري الحسان . فلما رأت ام جعفر شدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم ، اتخذت الجواري المقـدودات الحسان الوجـوه ، وعممت رؤوسهن والبستهن الاقبية والمناطق ، فماست قـدودهن ، وبـرزت اردافهن وبعثت بهن اليه . فاختلفن بين يديه فاستحسنهن واجتذبن قلبه اليهن ، وابرزهـن للناس من العامة والخاصة فاتخذ الناس الجواري المطمومات ، والبسوهن الاقبيةوالمناطق وسموهن الغلاميـات . (١)

وكان ولوع الامين بالغلمان ظاهرا ، وكانت احاديثالغلمان تجرى فى مجلس الامين نفسه ، وكان الامين من احسن خلـق الله ، لم ير ذكر ولا انثى مثله جمالا وحسنا . فسأل ابـا نواس ليلة ، وقد نظر اليه نظرة ذي علق : هل تشتهيني ؟

فقال ابو نواس : معاذ الله ! ومن يحدث نفسه بمثل ذلك ؟

فقال : اقسمت عليك بحياتي الا اخبرتني !

فقال : ياسيدي ان الاموات يشتهونك ، فكيف الاحياء ؟ (٢)

وهكذا لم يجر الحديث حول اشتهاء الغلمان ، بل صـار الخليفة نفسه موضع الريبة ومحط الشهوة !

---

(١) مروج الذهب ، ج ٨ ، ٢٩٩ (اوروبة)

(٢) ثمار القلوب ، ص ١٤٨

وأحب المأمون الغلمان والولدان فاتخذهم بدلا من النساء. ويذكر الثعالبي ان الفضل فى ذلك يعود الى يحيى بن اكثم . فهو الذي زين للمأمون اللواط وغرس فى قلبه محاسن الغلمان وفضائلهم وخصائصهم . وما ندري مبلغ هذا الخبر من الصحة ، أكان أعداء يحيى هم الذين نسبوا ذلك اليه ام انه كان يلوط الغلمان حقا . يقول الثعالبي : فصدر المأمون عن رأيه .

وذكر ان المأمون نظر يوما الى يحيى فى مجلسه وهو يحد النظر الى ابن اخيه الواثق ، وهو اذ ذاك امرد تأكله العين . فتبسم اليه وقال : ياابا محمد ، حوالينا ولا علينا !

ومن الاحاديث الطريفة ماجرى بين المأمون ويحيى ذات ليلة ، على المطايبة والمداعبة والمجاراة فى ميدان الغلمان . وكان مترف غلام المأمون حاضرا يسمع اليهما ، وهو الذي حكى هذه القصة . قال :

قال المأمون : يا ابا محمد ! اخبرني عن اظرف غلام مر بك !

قال : نعم ياامير المؤمنين ، احتكم الى غلام فى نهاية الملاحة والظرف واللباقة ، فأخذته عيني وتعلقه قلبي . فلم افصل فى الحكم بينه وبين خصمه ايثارا مني للقائه ومعاودته اياي فى حكومته . فدخل الي حين خلوة ، ومثله لايحجب عني . فلما وصل الي قال : ايها القاضي ! اعدني على خصمي !

فقلت له : ومن يعدني على عينيك يابني ؟

قال : شفتي !

وادناه مني ، فلما شممت الخمر من فيه وبلغت حدا من القبل ، قلت له : يابني ! مابال شفتيك متشققتين ؟

فقال : احلىٰ مايكون التين اذا تشقق !

قلت له ، ويدي فى ثيابه : يابني ماانحفك !

فقال : كلما دق قصب السكر كان احلى !

فضحك المأمون ، ووقع له بمائتي دينار ، وقال اوصلها اليه ولو على اجنحة الطير . وكان الغلام قد التحى ، وكان يحيى يعرف منزله فأوصلها اليه (١) .

ولولا شغف المأمون بالغلمان لما لذه حديث كهذا ، ولااستمع اليه . ولعل يحيى كان يرى ان اللواط بالغلام المملوك لايوجب الحد ، فأغرى المأمون به . وقد كان فى الفقهاء من يرى هذا المراي . (٢)

واقتدى المعتصم بالمأمون فى الولوع بالغلمان واتيانهم حتى اشتهر بهم ، وملك ثمانية آلاف منهم . (٣)

وكان للمتوكل غلام اسمه شاهك ، وكان يعشقه الفتح بن خاقان ويقول فيه الشعر . وكان يسعى بينه وبين الغلام

---

(١) ثمار القلوب ، ص ١٢٣ ــ ١٢٤
(٢) الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ١٣٤
(٣) ثمار القلوب ، ص ١٢٣

ابو عبد الله بن حمدون ، فعرف المتوكل الخبر فاستدعى ابا عبد الله وقال له : انما اردتك وادنيتك لتنادمني لا لتقود على غلماني . ثم نفاه . (١)

وكان عند المعتمد بدر الجلنار وكان يحبه ويؤثره . (٢)

وكان المعتز يحب يونس بن بغا ، فلم يكن يفارقه ولا يصبر عنه ، وله فيه اشعار كثيرة ، وكان يشرب على وجهه . وهو القائل فيه من قصيدة :

تغيب فلا افرح فليتك لاتبرح

وكان يأمر له بكل جليل من الخزائن . (٣)

تلك اخبار موجزة عن ولع بعض الخلفاء بالغلمان . وما ندري سبب هذا التحول عن النساء الى الولدان . ولعل هذا الشذوذ الجنسي آت عن كثرة النساء فى القصور ، فملهن الخلفاء ومالوا الى الولدان .

---

(١) الديارات ، ص ٤ ــ ٥
(٢) المصدر السابق ، ص ٦٦
(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٧ ــ وانظر هناك اخباره بالتفصيل

- ٦ -

جواهـــر الخلفاء العباسيين

كان لرفيف الحضارة ايام العباسيين اثـر كبيـر فى رقي العواطف والاذواق ، والاندفاع نحو الترف والبذخ . ولعل الجواهر والخواتم ، والتيجان والوشح المرصعة ، والقـلانس المجوهرة ، والقضبان العاجية الثمينة ، والاعمدة المذهبـة ، كانت اكبر مظهر من مظاهر ترف الخلفاء وبذخهم ، ثم تعدوا ذلك الى ماهو ابعد وأروع ، فزينوا الحيطان والسقـوف والابواب والرواشن بالدر وحلوها بمثل حليهم . (١)

وكانت الجواهر منذ الزمن البعيد ، قنية للاكاســرة يلتقطونها من كل مكان ، ويرسلون فى اثرها الرسل ويجودون بالمال . وكانت هذه الجواهر مجتمعة من لدن اردشير بن بابك يرثها عنه القائمون بعده ، كابر عن كابر . حتى اذا جــاء الاسلام ، وقوض عرش كسرى ، القت فارس الى الـدولة العربية جواهرها وافلاذها . على ان هذه الكنوز لم تجـد

---

(١) الجمـاهر فى معرفـة الجواهـر للبيرونـي ، ص ٣٢ (حيـدر آبـاد ـ كرنكو)

عند الخلفاء الراشدين هوى ، ولم يكن لهم ميل الى هذه الاعراض الدنيوية ، فصدفوا عنها ، وصرفوها الى سائر المسلمين . ولم يكن لبني امية شغف بالغ بأشباه هذه الامور ، فقد كانت دولتهم عربية لم يترعن فيها غير نفر او نفرين . فاتسعت الجواهر المذكورة فى ايامهم ، وامتلأت بها خزائنهم (١) وتناقلها الناس ، حتى قالوا انه كان يعمل منها اوان ، ولهذا قال الشافعي فى كتاب حرملة « لايجوز استعمال اواني الياقوت والبلور لان قيمتها تفوق قيمة الذهب » (٢) واوضح انه لو لم يكن هناك اوان من هذا الضرب لما قال الشافعي قوله . فلما فاجأتهم الدولة العباسية وجدوا خيرا كثيرا وجوهرا وافرا ، ولم ينتفعوا الا بالقليل منه فقد حدث بعض اهل مروان « لم يكن لنا فى هربنا شيء انفع من الجوهر الخفيف الثمن الذي لايجاوز قيمته الخمسة دنانير .. » (٣)

***

ولقد شغف بنو العباس بالجوهر شغفا كبيرا . فقد ذكر ابن خلدون ان السفاح والمنصور اتخذوا الاسرة الذهبية ، المرصعة بالجوهر ، والحصر المنسوجة بالذهب ، المكللة بالدر والياقوت . (٤)

---

(١) الجماهر ، ص ٥٧
(٢) المصدر السابق ، ص ٥٤
(٣) المصدر السابق ، ص ٦٦
(٤) التمدن الاسلامي ، عن ابن خلدون ، ج ٥ ، ١٠٦

وذكروا انه كان لهشام بن عبد الملك درة اسمها « الـدرة اليتيمة » . اتى بهايوما وعنده امراته عبدة بنت عبيد الله بن يزيد بن معاوية ، وكانت مفرطة السمن ، لم تكن تستغني فى الحركة عن معونة نفر . فقال لها هشام : أن قمت بنفسك من غير استعانة بأحـــد فلك هذه الدرة !

فزاولت القيام بشدة ومشقة ، ومـــا تـــم نهوضها حتى خرت على وجهها وسال الدم من انفها ، فغسلها هشـــــام واعطاها الدرة . وكانت ثلاثة مثاقيل ، حائزة جميع محاسن الصفات ، مدحرجة نقية رطبة من كثرة الماء ، ولذلك سميت اليتيمة . فلما انقضت دولة بني امية ، وانتدب عبد الله بن علي لبيع ودائع مروان بن محمد ، غمز اليه بان عند عبـــدة الدرة اليتيمة وقرطان لها بقيا لديها . فاحضرها وطالبهــــا بذلك ، فسلمت ذلك اليه . فقال لها : اختاري لـــك موضعا احسن لـــك فيـــه !

فسمت موضعا بالشـــام ، فسيرهـــا اليه . ثم خـــاف ان يطلع السفاح على ذلك ويستخبرها ، فأتبعها عبدا ، حتى عدل بها عن الطريق وذبحها . (١)

وفعلة عبد الله بن علي هذه ، غاية فى التوحش والغلظـــة والـــدنـــاءة .

---

(١) الجماهر ، ص ١٥٢ــوانظر نخب الذخائر لابن الاكفاني (كرملي) ص٥٣

وكان مما اخذ منها بدنة مجوهرة كانت عندها . ذكر الشابشتي فى كتابه « الديارات » ان المهدي لما زوج ابنه الرشيد بأم جعفر ابنة اخيه أستعد لها مالم يستعد لامراة قبلها : من الآلة وصناديق الجوهروالحلى والتيجان والاكاليل وقباب الفضة والذهب والطيب ، واعطاها بدنة عبدة امراة هشام . قال : ولم ير فى الاسلام مثلها ومثل الحب الذي كان فيها . وكان فى ظهرها وصدرها خطان من ياقوت أحمر ، وباقيها من الدر الكبار الذي ليس مثله . (١) ويقال ان المقومين لم يقفوا على قيمة هذا الدرع لنفاسته . (٢)

وذكر ابراهيم بن المهدي ان اباه اشترى فصا من ياقوت احمر ، على اقصى النهاية النفاسة، بثلاثمئة الف دينار ،وكانت اكياسا ـ لما نضد بعضها على بعض ـ كالجبل . وقدوهبه للهادي . (٣) ، وقيل بل الذي اشتراه هو المنصور بأربعين الف دينار . (٤)

ثم صار الى الرشيد فقرنه الى الخاتم « الاسماعيل » الذي كان للمنصور . وكان من زمرد على وزن مثقالين يسمى « البحر » تشبيها له بخضرته . وكان شراؤه بأربعين الف دينار . (٥)

---

(١) الديارات ، ص ١٠٠
(٢) تحفة العروس ، ص ٣٦
(٣) الجماهر ، ص ٦١
(٤) المحاسن والمساوىء للبيهقى (شوالي) ص ٥٠٣
(٥) الجماهر ، ص ١٥٢

وكان الرشيد شديد الولوع بالجواهر حريصا على اقتنائها . بعث بالصباح الجوهري ، جد الكندي ، الى صاحب سرنديب لابتياع جواهر من ناحيته . (١)

وكان ينثر الجوهر بغير حساب . وكان من جملة حظاياه واحدة لم ترزق جارية من الجمال مارزقته هي . وكان الرشيد اذا اتحفهن بشيء ردت هذه حصتها ، وهو يغتاظ من ذلك . فاتفق يوما انه نثر عليهن جواهر لها قيم عظام فالتقطنها ، ولم تمد تلك اليها يدا . ثم احضر جواهر غيرها وخيرهن . فاخترن ، وقال لتلك : لم لاتختارين اسوة بصواحبك ؟ قالت : ان كان لي ما اختاره فسأفعل . واخذت بيده ، وقالت له : هذا اختياري من جميع جواهر العالم . فأعجب الرشيد بها وسماها خالصة ، وفاقت سائرهن في الحظوة منه وفى الصلات والمواهب . (٢)

وذكر البيهقي انه أشترى للرشيد جوهر بمائتي الف دينار فوهبه لدنانير البرمكية . (٣)

ولم تكن زبيدة زوجه اقل منه عناية بالجواهر ، فقد كان لها سبحة من يواقيت رمانية كالبنادق (٤) ، وكان شراؤها خمسين الف دينار . وجرى بين الرشيد وبينها

---

(١) الجماهر ، ص ٦٣
(٢) الجماهر ، ص ٥٨
(٣) المحاسن والمساوىء ، ص ٥٤٤
(٤) الجماهر ، ص ٥٨

ذكر نزاهة عمارة بن حمزة وعلو همته . فقالت : « ان الاقدام الثابتة تزل عن مواطئها عند روائح المال ، فادع به وهب لـه سبحتي هذه ، فان ردها عرفنا نزاهته . » ففعل ، وخلا به فى أمر مهم ، ثم اتبعه السبحة فوضعها عمارة بين يديه بعد أن شكر بره . ولما قام تركها مكانها . فقالت زبيدة : قد انسيها ، فاتبعه خادما بها !

فرجع قائلا : « ان عمارة قد وهبها لي » . فاعطته زبيدة الف دينار وارتجعتها منه . (١)

وكان عند الرشيد قضيب زمرد أطول من ذراع ، وعلى راسه تمثال طائر من ياقوت أحمر لاقدر له نفاسة ، وقوم هذا الطائر على حدته بمائة الف دينار . وكان هذا القضيب هدية من بعض ملوك الهند . (٢)

وقد بلغ من اعجاب زبيدة بالدر انها امرت ان يتخذ ثيابا لوصائفها من الدر المثقوب بالتصليب (٣) ثم ازداد شغفها به حتى انها اتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر تلبسها في قصرها .

وقيل انها اشترت لعبد الله بن المخلوع قضيبا من زمرد

---

(١) الجماهر ص ١٥٦
(٢) مطالع البدور ، ج ٢ ، ١٣٨
(٣) الجماهر ص ٥٨

قدر ذراع بأربعة وثمانين الف دينار ليلعب به يوم اعذاره . وكان على راسه طائر من ياقوت احمر . (١)

اما المأمون فأخباره متناقضة ، تدل على شغفه بالجوهر تارة ، وتظهر نفوره منها احيانا . فقد ذكروا انه لما قدم بغداد منصرفا من خراسان أهدى اليه الفضل بن الربيع فص ياقوت لم ير مثله . فأخذ المأمون يقلبه ويحوله من يد الى يد ويقول لجلسائه : مارايت احسن من هذا الفص . ثم حدثهم ان ابا مسلم سرح زياد بن صالح الى الصين ، فوجه اليه بفص وقع له من جهته الى ابي العباس السفاح ، فوهبه لعبد الله بن علي ، وصار منه الى المهدي ثم الى الرشيد . فبينما هو يرمي قوس جلاهق اذ بدر الفص من خاتمه وكر في ذلك الموضع حواليه ، فلم يعثر له على اثر ، واغتم جدا . فاشترى له صاحب المصلى فصا عديم المثال بعشرين الف دينار ، وبعث به اليه ليسليه عنه ، فلما نظر اليه قال : واين هذا من فصي !

ثم قال المأمون : « لأضعن من قدر هذه الحجارة التي لامعنى لها » ، ثم رد الفص على الفضل . (٢)

وذكر ابن شاكر ان المأمون اعطى زوجه بوران ليلة زفافها الف حصاة من الياقوت ، وبسط لها فرشا كان الحصير منه

---

(١) الجماهر ، ص ٦٥
(٢) الجماهر ، ص ٦٥

منسوجا بالذهب ، مكللا بالدر والياقوت . فكان بياض الدر يشرق على صفرة الذهب ، ونثر الحسن بن سهل على المأمون فى تلك الليلة الف جوهرة . (١)

ووهب المأمون للحسن بن سهل عقدا قيمته الف الف درهم (٢) .

وقيل ان زبيدة لما دخلت على المأمون عند دخوله بغداد هنأته بالخلافة ، فأعجب بكلامها وحشا فاها درا . (٣)

وذكر أن المأمون كان يحب الواثق ويجتهد فى تخريجه ، وعادله فى السفر مرة . فأخذ الجمال فى الحدآء . واشفق المأمون ان يستيقظ الواثق من نومه. ولم يمكنه النداء بالجمال فقطع سلك سبحة من الدر ، واخذ يرميه بدرة بعد اخرى الى ان اصابه ، فالتفت اليه واومأ اليه بالسكوت . ثم دل احد الثقات بالغداة على الموضع فالتقطها من الطريق . (٤)

ولم يكن الامين باقل شغفا بالجوهر من امه وابيه ، حتى بلغ به ذلك الى انه كان يشرب باقداح من بلور كللت جوانبها بالجوهر الثمين . (٥)

---

(١) عيون التواريخ (مخطوطة الظاهرية) ج ٦ ، سنة ٢٠٤ هـ
(٢) مطالع البدور ، ج ٢ ، ١٣٨
(٣) عيون التواريخ ، سنة ٢٢٦
(٤) الجماهر ، ص ١٥٦
(٥) المحاسن والمساوىء ، ص ٣٦٢

وقوم الجوهر الذي سلم من النهب عند فتنة المأمون بألف الف الف ، ومائة الف ، وستة عشر الف درهم . (١)

اما المعتصم فقد ورث ماكان عند ابيه واخيه ، وقالوا انه لما قتل الافشين اخذ من داره اصناما محلاة بالذهب والجوهر . (٢)

وكانت هذه الجواهر تقع احايين كثيرة فى ايدي الحاشية والوصائف ، وربما عادت الى الخليفة آخرمرة اخرى . فذكروا ان المتوكل جلس يوما لهدايا النيروز ، فقدم اليه كل علق ثمين . فدخل عليه طبيبه جبريل بن بختيشوع ، وكان يأنس به ، فقال : ماترى فى هذا اليوم ؟

قال جبريل : مثل خرباشات الشحاذين ! اذ ليس لها قدر . اقبل على مامعي !

ثم اخرج من كمه درج آبنوس مضبب بالذهب ، وفتحه عن حرير اخضر ، فانكشف عن ملعقة كبيرة من الجوهر لمع منها شهاب فوضعها بين يديه . فراى المتوكل مالا عهد له بمثله . فقال : من اين لك هذا ؟

قال : من الناس الكرام .

ثم حدث انه صار الى ابيه من ام جعفر زبيدة فى ثلاث شكايات عالجها فيها بثلاث مائة الف دينار . (٣) .

---

(١) مطالع البدور ، ج ٢ ، ١٣٨
(٢) عيون التواريخ ، سنة ٢٢٦
(٣) مطالع البدور ، ج ٢ ، ١٣٨

وكان للمتوكل فص ياقوت احمر وزنه ستة قراريط اشتراه بستة آلاف دينار . وكانت له سبحة فيها مائة حبة جوهر ، وزن كل حبة مثقال ، اشتريت كل حبة منها بألف دينار . (١)

ودخل بختيشوع على المتوكل يوم مهرجان ، فقال : اين هديتك ؟

فقال : هديتي لم يملكها خليفة قبلك !

واخرج ملعقة زبرجد توزن ثمانية مثاقيل .

وحكى عن أبيه جبريل انه قصد دنانير جارية يحيى بن خالد فوجدها تأكل رمانا بهذه المعلقة . فقالت له : خذ هذه الملعقة !

فأخذها ، ففرح المتوكل ، واحضر عتابا الجوهري لتقويمها

فقال « لاأعرف لهذه قيمة ! » (٢)

وكان الواثق يملك الدر الكثير . وحكى محمد بن بشير النديم انه دخل على الواثق فاذا هو فى دار مفروشة الارض والحيطان بالوشي المنسوج بالذهب على سرير مرصع بالجوهر ، والى جانبه جاريته فريدة ، وذكر ان الواثق اغضب

---

(١) مطالع البدور ، ج ٢ ، ١٣٨

(٢) الجماهر ، ص ١٦٥ ـ وانظر نشوار المحاضرة للتنوخي ، ج ٢ ، ١٤٤ (مطبوعات مجمع دمشق)

فريدة يوما فاسترضاها بحق فيه عقد جوهر ماروٰي مثلــه لخليفـــة . (١)

ولا ندري ماكان يفعل المعتز بالجواهر لو طالت خلافته . على ان امه قبيحة ـ زوج المتوكل ـ كانت تجمع الجـواهر وتدخرها ولكنها لم تنتفع بها فى دين ولا دنيا . ولم تفـث به ابنها حين طلب منه الاتراك خمسين الـف دينار علـى ان يقتلوا صالح بن وصيف ويريحوه منه . فلاذ بأمه فشحت عليه وقالت : لامال عندي .

فلما قتل المعتز وجد لها صالح ثلاثة اسفاط فيها زمـرد وجوهر وياقوت أحمر ، ماظن ان يقع مثله ويكون فى ايـدي العالم . وقوم هذا كله بألفي الف دينار . وقومت الاسفاط بألف ألف دينار . (٢)

ولما اشارت قبيحة هذه على ابنها المعتز بقتل اخيه المؤيد بعثت الى امه بسبحة در قيمتها اربعة آلاف دينار . وقالت لها : سبحي بها يا اختاه . فسحقتها في الهاون ، ولفتها في كاغد وردتها الى حاملتها وقالت لها : اقرئي عني اختي السلام وقولي لها : التسبيح لايذهب بحزازات الدماء . (٣)

وكان بعض الخلفاء يبتاعون المتاع والأثاث بالجواهر بدلا

---

(١) عيون التواريخ ، سنة ٢٣٢
(٢) الجمـاهر ، ص ٦٨
(٣) الجمـاهر ، ص ١٥٨

من الدنانير . فذكر ابن شاكر ان المستعين اشترى من المعتز كثيرا من المتاع والأثاث بما قيمته عشرة آلاف دينار وعشر حبات جوهر . (١)

ولما انتقلت الخلافة الى المقتدر كانت خزانة الدولة مترعة بالجواهر . ومن جملتها حجر الياقوت الذي اشتراه الرشيد بثلاثماية الف دينار ، والدرة اليتيمة التي قومت بمائة وعشرين الف دينار ، وغير ذلك . (٢) على ان المقتدر اضاع ماوصل اليه على النساء وبذرها فيهن . ولما احتشم وزيره العباس ورام اسكاته بالاشتراك فى النهب وتلويثه بالخيانة انفذ اليه من الجواهر مايعظم مقداره تكرمة له . فردها العباس قائلا : « انها زينة الاسلام ، وعدة الخلافة ، وليس تفريقها بصواب . » (٣)

وكان لخالة المقتدر هذا فص يلقب « بورقة الآس » لانه كان على شكلها ، وزنه مثقال الا شعيرتان وشراؤه بستين الف درهم . (٤)

تلك لمح موجزات عن الجواهر التي وصلت الى بعض خلفاء بني العباس ، واذا اضفنا الى هذا تلك الجواهر التي كانوا يزينون بها قصورهم كقصر البرج الذي بناه المتوكل وقصر الثريا ، وقصور المقتدر بما فيها دار الشجرة ، وقصور سامراء ، ادركنا مبلغ الترف والبذخ اللذين رتع فيهما الخلفاء فكانا سببا فى وهن ملكهم وأندثار حضارتهم .

---

(١) عيون التواريخ ، سنة ٢٤٨
(٢) الفخري ، ص ١٩١
(٣) الجماهر ، ص ٥٧
(٤) الجماهر ، ص ٥٧

- ٧-

الخلفــاء العباسيون والهــدايا

درج الناس فى العصر العباسي على تقديم الهدايا للخلفاء . ونلاحظ ان هذه الهدايا كانت تقدم فى النيروز والمهرجان ، وفى الفصد ، وفي العودة من الحج . هذا عدا الهدايا التي كـانت تحملها الرسل الواردة على الخليفة من الولاة والامراء ، او من ملـــوك الــروم .

اما الهدايا فى النيروز والمهرجان ، فعادة فارسية اخذها العرب عن الفرس منذ فجر العصر الاسلامي . ويقول الجاحظ انها كانت معروفة زمن معاوية ، وظلت كذلك طول عهــــد الامويين حتى جاء عمر بن عبد العزيز فأبطلها ، فلما دالت دولة الامويين ، وقامت دولة العباسيين ، عادت هذه العادة الـــى الناس ، وصارت فرضا عليهم نحو الملوك .

ويبين الجاحظ العلة فى تقديم الهدايا فى النيروز والمهرجان فيقــول : « وأن من حق الملك هــدايا المهــرجان والنيروز ، والعلة فى ذلك انهما فصلا السنة . فالمهرجان دخول الشتاء وفصل البرد ، والنيروز ايذانا بدخول فصل الحر . ومــن

حق الملك ان تهدى اليه الخاصة والعامة . والسنة فى ذلك عندهم أن يهدي الرجل مايحب من ملكه اذا كان فى الطبقة العالية ، فان كان يحب المسك اهدى مسكا لاغيره ، وان كان يحب العنبر أهدى عنبرا ، وان كان صاحب بزة ولبسة اهدى كسوة وثيابا ، وان كان من الشجعان والفرسان فالسنة ان يهدي ذهبا او فضة . وان كان من عمال الملك ، وكانت عليه متأخرات أو بقايا للسنة الماضية جمعها وجعلها فى بدر حرير صيني وشريحات فضة وخيوط ابريسم ... ثم وجهها . وكان يهدي الشاعر الشعر ، والخطيب الخطبة ، والنديم التحفة والطرفة والباكورة من الخضراوات . وعلى خاصة نساء الملك وجواريه ان يهدين الى الملك ما يؤثرنه . ويجب على المراة من نساء الملك ان كانت عندها جارية تعلم ان الملك يهواها ويسر بها ، ان تهديها اليه ، بأكمل حالاتها ، وأفضل زينتها ، واحسن هيأتها . فاذا فعلت ذلك فمن حقها على الملك ان يقدمها على نسائه ويخصها بالمنزلة ويزيدها فى الكرامة ! » (١)

وعاد الجاحظ في المحاسن والاضداد ففصل ما اجمل في التاج . قال : « وجعلوا شعارهم : كل يهدى على قدره . فكان القواد يهدون النشاب والاعمدة المصمتة من الذهب والفضة . والكتاب والوزراء والخاصة من قراباتهم جامات الذهب والفضة المرصعة بالجوهر ، وجامات الفضة الملوحة

(١) التاج ، ص ١٤٨ — ١٤٩

بالذهب . والعظماء والاشراف يهدون البزاة والعقبان والصقور والشواهين والفهود . وربما اهدى الرجل الشريف سوطا . وكانت الحكماء يهدون الحكمة ، والشعراء الشعر ، واصحاب الجوهر الجوهر ، واصحاب نتاج الدواب الفرس الفاره والشهري النادر ، والظراف قرب الحرير الصيني مملوءة ماء ورد ، والمقاتلة القسي والرماح والنشاب . وكانت نسوة الملك تهدي احداهن الجارية الناهدة والوصيفة الرائعة ، والاخرى الدرة النفسية والجوهر الثمنية ، وفص خاتم ، وما لطف وخف . واصحاب البز الثوب المرتفع من الخز والديباج وغير ذلك ، والصيارفة نقر الذهب مملوءة بالفضة ، وجامات الفضة مملوءة دنانير . » (١)

وكان للهدايا كاتب خاص ، يكتب اسم كل مهد ، وجائزة كل من يجيز الملك على هديته ليودع ديوان النيروز (٢) مهما كان شأن الهدية صغرت ام كبرت ، كثرت ام قلت . فاذا اهدى احدهم الملك هدية ، ثم لم يخرج له من الملك صلة عند نائبه تنوبه او حق يلزمه ، فعليه ان يأتي ديوان الملك ويذكر بنفسه . (٣)

وذهب آدم متز الى ان المهرجان كان يمتاز خاصة بأن

---

(١) المحاسن والاضداد ، ص ١٩٧

(٢) المصدر السابق

(٣) التاج ، ص ١٤٩

الرعية يهدون فيه الى السلطان . (١) ولا وجه لتمييز المهرجان من النيروز وقد رايت أن الجاحظ جعلها سوآء ، وذكر هدايا المهرجان وهدايا النيروز (٢) . وقد كان النيروز عيدا قوميا يحفلون به حفلهم بعيد الفطر ، ويتبارون فيه بالقصائد والهدايا .

ولنر الان انموذجات من هذه الهدايا فى ضروبها واصنافها :

فلقد اهدى المنصور الوصائف من الرجال . حدث الفضل بن الربيع عن ابيه قال : كنت فى خمسين وصيفا اهدوا للمنصور ، ففرقنا فى خدمته . (٣)

واهدت جارية الى المهدي تفاحة ، فأعجب بهذه الهدية وقال :

تفاحة من عند تفاحة جاءت فماذا صنعت بالفؤاد

والله ما أدري أأبصرتها يقظان ام ابصرتها فى الرقاد (٤)

ولما عشق ابو العتاهية عتبة ، جعل هديته الى المهدي وسيلة لوصالها . فقد ذكر المبرد ان ابا العتاهية استأذن فى ان يطلق له ان يهدي الى امير المؤمنين فى النيروز والمهرجان .

---

(١) الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ٢٨٤

(٢) المحاسن والاضداد ، ص ١٨١

(٣) الاغاني ، ج ٦ ، ٨

(٤) عيون الاخبار ج ٢ ، ٢٩

فأهدى له فى احدها برنية ضخمة فيها ثوب ناعم وطيب ، قد كتب على حواشيه .

نفسي بشيء من الدنيا معلقة   الله ، والقائم المهدي يكفيها
اني لأيأس منها ثم يطمعني   فيهاحتقارك للدنيا وما فيها(١)

وحدث ابراهيم بن المهدي قال : كنتعند الرشيد،فأهديت له اطباق ومعها رقعة . فلما قراها استفزه الطرب . فقلت : ياامير المؤمنين ماالذي اطربك ؟

قال : هذه هدية عبد الملك بن صالح .

ثم نبذ الى الرقعة فاذا فيها : « دخلت ياامير المؤمنين بستانا افادنبه كرمك ، وعمرته بنعمتك ، وقد اينعت ثماره وفاكهته . فاخذت من كل شيء وصيرته فى اطباق القضبان ووجهته لامير المؤمنين ليصل الي من بركة دعائه مثل ما وصل الي من بركة عطائه . » (٢)

قلت : وما فى هذا مايقتضي هذا السرور ؟

قال : الا ترى الى ظرفه كيف قال القضبان ، فكنى به عن الخيزران اذ كان يجري به اسم امنا ؟

ثم كشف المنديل ، فاذا بعضها فوق بعض ، فى احدها فستق ، وفي الاخر بندق ، الى غير ذلك من الفاكهة . (٣)

---

(١) وفيات الاعيان ، ج ١ ، ١٢٦
(٢) مطالع البدور ، ج ٢ ، ١٣٦
(٣) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٢٨٠

واهدى احمد بن يوسف للمأمون ثوب وشي (١) ،واهدى اليه مرة ثانية طبق جذع عليه ميل من ذهب فيه اسمه منقوش، وكتب اليه : « هذا يوم جرت فيه العادة ، بالطاف العبيد السادة ، وقد ارسلت الى امير المؤمنين طبق جذع فيه ميل . » (٢)

واهدى له عبد الله بن طاهر فرسا ، وكتب اليه : « قد بعثت الى امير المؤمنين بفرس يلحق الارانب فى الصعدآء ، ويجاوز الظباء فى الاستوآء ويسبق فى الحدور جري الماء(٣)

وهدية الخيل كانت معروفة من قبل . فقد اهدى الحجاج الى عبد الملك فرسا (٤) واهدى عمرو بن العاص الى معاوية ثلاثين فرسا من سوابق خيل مصر . (٥)

ولما افضت الخلافة الى المتوكل اهدى اليه الناس على اقدارهم ، واهدى اليه ابن طاهر هدية فيها مائتا وصيفة ووصيف . وفى الهدية جارية يقال لها محبوبة كانت لرجل من اهل الطائف قد ادبها وثقفها وعلمها من صنوف العلم ، وكانت تحسن كل مايحسنه علماء الناس . فحسن موقعها من المتوكل ، وحلت من قلبه محلا جليلا . (٦)

---

(١) وفيات الاعيان ، ج ٢ ، ٣٠٥
(٢) زهر الاداب ، ج ٢ ، ١١
(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ٢٠
(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ، ١٩
(٥) المصدر السابق ، ج ٢ ، ٢١
(٦) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٣٩٥

وبعث الحسن بن وهب الى المتوكل بجام من ذهب فيه ألفا مثقال من عنبر . (١)

واهدى اليه خالد المهلبي فى يوم نيروز ثوب وشي منسوجا بالذهب ومشمة عنبر عليها فصوص جوهر مشبك بالذهب ودرعا مضاعفة وثوبا بغداديا فأعجبه حسنه ، ثم دعا به فلبسه وقال : يامهلبي انما لبسته لاسرك به !

فقال : ياامير المؤمنين لو كنت سوقة لوجب على الفتيان تعلم الفتوة منك ، فكيف وانت سيد الناس ؟ (٢)

وذكروا انه كان للمتوكل جارية اسمها شجرة الدر . وكان يميل اليها ميلا كبيرا ويفضلها على سائر حظاياه . فلما كان يوم المهرجان اهدى اليه حظاياه هدايا نفيسة واحتفلن في ذلك . فجاءت شجرة الدر بعشرين غزالا تربية ، على كل غزال خرج صغير مشبك حرير فيه المسك والعنبر والغالية واصناف الطيب ، ومع كل غزال وصيفة بمنطقة ذهب ، وفى يدها قضيب ذهب فى راسه جوهرة . فقال المتوكل لحظاياه وقد سر بالهدية : « مافيكن من تحسن مثل هذا وتقدر عليه ! » فحسدنها وعملن على قتلها بشيء سقينه لها فماتت . (٣)

---

(١) المحاسن والاضداد ، ص ١٨
(٢) المحاسن والاضداد ، ص ١٨١
(٣) مطالع البدور ، ج ٢ ، ١٣٦

والى جانب هذه الالوان من الهدايا كانوا يهدون الطـين .
قال الثعالبي : وكانوا يهدون طين نيسابور ، وهو طين الاكل لايوجد مثله فى الارض ، يحمل الى اداني البلاد واقاصيها ، ويتحف به الملوك ، وربما بيع الرطل منه بدينار . (١)

***

اما هدايا الفصد ، فلا تخرج عما ذكرت من قبل ، فكانوا يهدون الجواري والصواني والاقـداح والجامـات البلـور والشمامات والعنبر المسـك .

فقد فصد الرشيد فأهدى اليه اليزيـدي جـام بلـور ، وشمامات عالية ،وكتب اليه : ياأمير المؤمنين ، تفاءلت بالشرب بالجام بجمام النفس ودوام الانس ، والغالية للغلو فى السرور والازدياد مـن الحبور . (٢)

وافتصد المأمون مرة فأهدى اليه ابراهيم بن المهدي جارية معها عود ، ورقعة فيها :

عفـوت وكـان العفـو منـك سجيـة
كما كـان معقـودا بمفرقك الملـك (٣)

وفى مرة ثانية اهدت اليه « رباح » اترجة عنبر ، مكتوب عليها بماء الذهب بيتين من الشعر اعجب بهما ، فكافـأها بمـال كثـير . (٤)

---

(١) ثمار القلوب ، ص ٤٢٨
(٢) المحاسن والاضداد ، ص ١٨٤
(٣) المحاسن والاضداد ، ص ١٨٤
(٤) المحاسن والاضداد ، ص ١٨٤

وافتصد المعتصم فأهدت اليه « شمائل » صينية عقيق عليها قدح ، اسبل عليهما منديل مطيب ، مكتوب عليه بالعنبر ابيات شعر رقيق، فلما قراه امر بأحضار اسحق بن ابراهيم، وامره ان يجعل له لحنا ، وامر مسرورا باخراجها من ورآء الستارة ، ثم لم يزل يردد هذه الابيات حتى احكمتها شمائل وغنت ، فكأن سقط الدر يتناثر من فيها . وأمر لاسحق بمال ، وللجارية بخمس وصائف وخمسة آلاف دينار. (١)

وافتصد ابراهيم بن المهدي فأهدى اليه اسحق بن ابراهيم الموصلي صوتا من غنائه ، وارسل غلامه فغناه به . (٢)

وربما طلب الخليفة من خاصته ان يهدوه ، كما فعل المتوكل . فقد افتصد ، فقال لخاصته وندمائه : اهدوا الي يوم فصدي . فاحتفل كل واحد منهم فى هديته .

واهدى اليه الفتح بن خاقان جارية لم ير الراؤون مثلها حسنا وظرفا وكمالا . فدخلت ومعها جام ذهب فى نهاية الحسن ، ودن بلور لم ير مثله فيه شراب يتجاوز الصفات ، ورقعة فيها تهنئته بالشفاء ، فاستظرف المتوكل ذلك واستحسنه . (٣)

ولعل الطف هدية اهديت فى يوم فصد ، هي هدية ابي

---

(١) المحاسن والاضداد ، ص ١٨٤
(٢) الاغاني ، ج ٥ ، ٦٦
(٤) عيون الانباء ، ص ١٨١

دلف ، فقد افتصد عبد الله بن طاهر ، فجمع ابو دلف ماأصاب في السوق من الورد وارسله هدية له . (١) وقد اوردت هذا الخبر لطرافته ، رغم ان ابن طاهر ليس من الخلفاء .

***

امـا هدايا العمال والولاة والملوك للخلفاء فكثيرة . فكـان كل وال يتفنن بارسال الهدايا للخليفة ابتغاء مرضاته . فقد وجه يعقوب ابن الليث صاحب خراسان الى المعتمـد هـدية من جملتها عشر بزاة منها باز ابلق لم ير مثله ، ومائة مهـر ، وعشرون صندوقا على عشرة بغال ، فيها طرائف الصـين وغرائبها ، ومائة عود من مسك ، ومائة مـن عـود هندي ، واربعة آلاف درهم . (٢)

ولمـا قدم ابن الجصاص من مصر على المعتضد مرسلا من خمارويه كان معه هدايا من العين عشرون حمـلا على بغال ، وعشرة من الخدم ، وصندوقان فيهما طرائف ، وعشرون رجلا على عشرين نجيبا بالسروج المحلاة ، ومعهم جـرار فضة ؛ وعليهم اقبية ديباج ، وسبع عشرة دابة بسروج ولجم منهـا خمسة بذهب والباقي بفضة ، وزرافة . (٣)

وقد يرسل الى الخليفة كل غريب . ففي سنة ٢٩٩ وردت

---

(١) المحاسن والاضداد ، ص ١٨٤
(٢) مطالع البدور ، ج ٢ ، ١٣٥
(٣) المنتظم ، ج ٥ ، ١٢٨

من مصر هدايا منها كما ذكر الصولي تيس له ضرع يحلب اللبن .

ووردت رسل احمد بن اسماعيل بهدايا منها مذبة مرصعة بفاخر الجوهر وتاج من ذهب مرصع بجوهر له قيمة كبيرة. ومناطق ذهب مرصعة وربعة ذهب مرصعة . (١)

ووردت هدايا ابن ابي الساج اربعماية دابة ، وثمانون الف دينار ،وفرش ارمني لم يرمثله ، في بساط طوله سبعون ذراعا في عرض ستين ذراعا ، عمل في عشر سنين . (٢)

وفي سنة ٣٠٥ ، زمن المقتدر ، ورد على السلطان هدايا جليلة من احمد بن هلال صاحب عمان ، وفيها انواع الطيب ، ورماح ، وطرائف من طرائف البحر وطائر اسود يتكلم بالفارسية والهندية ، افصح من الببغاء ، وظباء سود . (٣)

وفي سنة ٣١٠ هـ وصلت هدية ابن المادرائي الحسين بن احمد من مصر وهي بغلة ومعها فلو ، وغلام طويل اللسان يلحق طرف لسانه انفه . (٤)

***

وكان ملوك الروم والفرنجة يهدون الى الخلفاء العباسيين الهدايا العظام توددا وتحببا . فقد اهدى ملك الروم الى

---

(١) المنتظم ، ج ٦ ، ١١٠
(٢) المصدر السابق
(٣) المصدر السابق ، ج ٦ ، ١٤٥
(٤) المصدر السابق ، ج ٦ ، ١٦٧

المأمون مائتي رطل مسك ، ومائتي جلد سمور . فقال المأمون : ضاعفوها ليعلم عز الاسلام .

واهدت ملكة الفرنجة الى المكتفي بالله سنة ٢٩٣ هـ خمسين سيفا ، وخمسين رمحا ، وخمسين فرسا ، وعشرين ثوبا منسوجا بالذهب ، وعشرين خادما صقليا حسنا ، وعشرة كلاب كبار لاتطيقها السباع ، وستة بازات ، وسبعة صقور ، ومضرب حرير . (١)

وفى سنة ٣٢٦ هـ ورد كتاب من ملك الروم الى الراضي . وكانت الكتابة بالرومية بالذهب ، والترجمة بالعربية بالفضة ، بطلب الهدنة . وفيه : « لما بلغنا مارزقته ايها الاخ الشريف الجليل من وفور العقل وتمام الادب واجتماع الفضائل اكثر ممن تقدمك من الخلفاء ، حمدنا الله تعالى ... وقد وجهنا شيئا من الالطاف ، وهي اقداح وجرار من فضة وذهب وجوهر ، وقضبان فضة ، وستور ، وثياب سقلاطون ، ونسيج ، ومناديل ، واشياء كثيرة فاخرة . (٢)

***

فهذه كلها الوان من الهدايا ، فيها تبيان لهذه العادة الاجتماعية التي كان لها شأن فى العصر العباسي ، الحافل بالعجائب والغرائب .

---

(١) الذخائر والتحف (مخطوط)
(٢ المنتظم ، ج ٦ ، ٢٩٣

- ٨ -

مآكل الخلفاء العباسيين

لعل الملوك والخلفاء ، من اشد الناس حرصا على انتقاء مالذ من الطعام وطاب . فهم يتخيرون اللذ من كل شيء . ومـا عليهم آن اتعبوا غيرهم او انفقوا الاموال الطوال فى سبيل ذلك.

والخلفاء العباسيون ، كانوا يعنون بهذا الامر كل العناية ، وكانوا يحرصون على الا يفوتهم من لذائذ المآكل والثمار شيء . فكانت هذه اللذائذ تحمل من الاقطار الى قصورهم فى بغداد ليتمتعوا بها . وكانوا يفرضون ان يحمل اليهم مع خراج كل بلد ماحسن فيه من زهر او مأكل او ثمر . فكان يحمل مع خراج الري (١) الرمان والخوخ المقدد . ومن اصبهان (٢) والموصل (٣) العسل والشمع . ومن الكوفة البنفسج . ومن جرجان (٤) النرجس . ومن الصيمرة (٥)

---

(١) الري مدينة مشهورة فى ايران . انظر معجم البلدان ج ٢ ، ٨٩٢

(٢) انظر معجم البلدان ، ج ١ ، ٢٩٢

(٣) انظر المصدر السابق ، ج ٤ ، ٦٨٢

(٤) انظر المصدر السابق ، ج ٢ ، ٤٨

(٥) انظر المصدر السابق ، ج ٣ ، ٣٤٢

الاترج . وكان يحمل من مكةالنارنج . ومن طبرستان (١)
والمدينة والحجاز الى الخليفة العنبر والزبيب . ومن
الاهواز (٢) ثلاثون الف رطل من السكر . ومن فارس (٣)
ماء الورد ، والزبيب الاسود والرمان والسفرجل والتين . اما
دمشق فكانت ترسل الى الخليفة التفاح . وكان المأمون معجبا
به . يؤخذ اليه منه ثلاثون الف تفاحة مع الخراج . (٤)

وكانوا أذا اشتهوا شيئا ولم يكن له نصيب في الخراج
ارسلوا يطلبونه . فقد كانوا يطلبون الوان اللحوم والطيور ،
ولو بعد مكانها ، فتأتيهم على البريد . ينفقون فى ذلك الاموال
الكثار ليتمتعوا بالطيبات من المآكل والثمار . (٥)

ولعل من اشد مظاهر الحضارة فى هذا العصر تعدد الالوان
التي كانت تهيأ من الطعام ، وقد كان عدد هذه الالوان يبلغ ،
فى بعض الاحايين ، مبلغا ، ماعرف ولا سمع بمثله . حدث
جعفر بن محمد — وكان احد العشرة الذين اختارهم المأمون
لمجالسته ومحادثته من الفقهاء والمتكلمين وأهل العلم — قال :
تغدينا يوما عند المأمون . فظننت انه وضع على المائدة اكثر

---

(١) انظر معجم البلدان ، ج ٣ ، ٥٠١
(٢) انظر معجم البلدان ، ج ١ ، ٤١٠
(٣) انظر معجم البلدان ، ج ٣ ، ٨٣٥
(٤) انظر فيما يتعلق بهذا الخبر : ثمار القلوب ، ص ٤٢٢ ، ٤٢٦
٤٢٧ — ولطائف المعارف (ليدن) ص ٩٥
(٥) ثمار القلوب ، ص ٤٢٨

من ثلاثماية لون . وكلما وضع لون ، نظر اليه المأمون وقال : هذا يصلح لكذا ، وهذا نافـع لكذا . (١)

ومهما يكن امر هذا الظن الذي ظنه هذا الفقيه ، فلا بـد ان يكون عدد الوان الطعام كبيرا . وقد كنا نـرتاب بالخبر ، لولا ان ذاكره هو ابن طيفور ، ولم يؤرخ المأمون احد مثله .

ويؤيد ماذكرنا تكثير الخلفاء الوان الطعام مارواه المسعودي . فقد ذكر ان الرشيد كان ينفق على طعامه فى كل يوم عشرة آلاف درهم . وانه ربما اتخذ له الطباخون ثلاثين لونا مـن الطعام . (٢) وكان يتخذ للقاهر اثنا عشر لونا . (٣)

ولا شك ان اثر الفرس والروم فى الاطعمة العباسية كـان واضحا . فقد عرفوا طرائف الطعام الفارسية ، وطرائفـه الرومية ، واقبلوا على اللحـوم والبقـول ، وعلـى البـوارد والحلويات . وعكفوا على التنويع والتفنن فى التحضير ممـا لاعهد للعرب الاوائل فيه .

على ان هؤلاء الخلفاء ، كانوا لايقدمون على هذه المآكل الا بعد مشورة اطبائهم ، ولا يتناولونها الا بحضورهم ، لان ذلك ادعى الى السلامة ، وآمن من مغبة النهم .

---

(١) تاريخ بغداد لطيفور ، ص ٥٧
(٢) حضارة الاسلام فى دار السلام ، ص ١١٠
(٣) الحضارة الاسلامية لمتز ، ج ١ ، ٢٤٧

ويحدثنا ابن ابي اصيبعة آن الرشيد كان يطلب جبرائيل المتطيب ليحضر اكله . (١) وكان آلامين لايأكل ولا يشرب الا باذن ابن بختيشوع (٢) وكان بعض بني هاشم لايتناولون اطعمتهم الا بحضرة يوحنا بن ماسويه . (٣) كان يقف على رؤوسهم ومعه البراني بالجوارشنات المسخنة الطابخة المقوية للحرارة الغريزية فى الشتاء . وفى الصيف بالاشربة الباردة الطابخة المقوية والمعاجين . (٤)

***

فلننظر الان فيما كانوا يرغبون فيه .

نلاحظ آن اكثر ميل ملوك بني العباس كان الى اللحوم ، وخاصة لحوم الدجاج . يقول الجاحظ : « وملوكنا واهل العيش منا لايرغبون فى شيء من اللحمان رغبتهم فى الدجاج . وهم يقدمونها على البط والنواهض والدراج ، وعلى الجدآء . . . وهم يأكلون الرواعي كما يأكلون المسمنات . » (٥)

اما رغبتهم فى الدجاج فذلك لانه اكثر اللحوم تصرفا . فهي تطيب شوآء ، ثم حارا وباردا ، ثم تطيب فى البز ماورد — وهو طعام من البيض واللحم ، او من رقاق ملفوفة بلحم — ثم تطيب

---

(١) عيون الانباء ، ج٢ ، ٣٤
(٢) القفطي ، ص ٩٨ (السعادة)
(٣) عيون الانباء ، ج ١ ، ١٢٨
(٤) القفطي ، ص ٢٤٩
(٥) الحيوان (هارون) ج ١ ، ٢٣٣

فى الهرائس وتطيب طبيخا ، وان قطعتها مع اللحم ، دسم ذلك اللحم ، وتصلح للحشاوي وسمينها يقدم فى السكباجة على البط . (١)

وكانوا يأكلون فى الشتاء من اللحم ماكان حارا مهيجا . قال المأمون لابي كامل الطباخ يوما : « اتخذ لنا رؤوس حملان تكون غداءنا غدا . ثم التفت الى علي بن هشام ، وكان حاضر ، فقال إن من آيين الرؤوس ان تؤكل في الشتاء خاصة ، وان يبكر آكلها عليها ، وآن لايخلط بها غيرها ، ولا يستعمل بعقبها الماء . » (٢)

وكان المأمون يميل الى لحم الغنم . قال للحسن بن سهل يوما : نظرت فى اللذات فوجدتها كلها مملولة ، سوى سبعة ، قال الحسن : وما السبعة ياامير المؤمنين ؟ قال : خبزالحنطة ولحم الغنم ، والماء البارد . . وعد اربعة غيرها . (٣)

وقد يعجب بعض الخلفاء بالملحات والمقورات . فقد خرج المقتدر يوما الى بستان الخلافة ، فطلب طعاما ، فلم يحضر طعامه فقدم له ملاح جونة من خيازر (ج خيزران) ، فيها جدي بارد ، وسكباج مبرود ، وبزماورد ، وادام ،وقطعة

---

(١) الحيوان ، ج ٢ ، ٢٥٠

(٢) تاريخ بغداد لطيفور ، ص ١٠٥

(٣) المستطرف ، ج ١ ، ١١١

مالح ممقور ، وارغفة سميذ جيدة . فاستنظفها واكل منها واستطاب المالح والادام ، فكان اكثر اكله منه . (١)

وعلى ذكر البزماورد نقول انه كان يسمى فى العصر العباسي لقمة الخليفة ، ولقمة القاضي ، ونرجس المائدة . (٢) وهذه التسميات تدلنا على ان الخلفاء والقضاة كانوا يأكلونه ويحلون به موائدهم .

وهذا البزماورد ، كان يتخذ من اللحم والبيض فى بغداد . ويذكر لنا الجاحظ ان اهل خراسان كان يعجبون باتخاذ البزماورد من فراخ الزنابير . (٣)

ويبدو أن اتخاذ البزماورد من فراخ الزنابير ليس بعجيب فقد كان الفضل بن يحيى يوجه خدمه فى طلب فراخ الزنابير ليأكلها ، وفراخها ضرب من الذبان الكبار ، كما يقول الجاحظ . (٤)

وكانوا يرغبون فى السكباج . ويسمونه مخ الاطعمة ، وسيد المرق . ولقد تشكى خليفة يوما لجارية له من هذا اللون من الطعام ، فقال لها : الى كم سكباج ؟ قالت : هو مخ الاطعمة ، لايكره بارده ولا يمل حاره ، بل يستطاب فى الحضر ، ويتزود منه فى السفر ، ولا يؤثر عليه الضيف فى الشتاء والصيف .(٥)

(١) نشوار المحاضرة ، ج ٢ ، ١٥٢
(٢) شفاء الغليل ، ص ٩٨
(٣) الحيوان ، ج ٤ ، ٤٤
(٤) المصدر السابق ، ج ٤ ، ٤٥
(٥) ثمار القلوب ، ص ٤٩٠

وكانوا يعنون بالسكارج والبقول ويقولون : لكل شيء حلية وحلية الخوان السكرجات والبقول . (١) ويقدرون الارز حق قدره ويقولون : الارز غذآء صحيح . (٢)

وكانوا يأكلون السنة ألسمك . يعمدون الى السمك فينزعون السنته ويأكلونها . ولقد دعا ابراهيم بن المهدي الرشيد مرة فأعد له طبقا من السنة سمك . وانفق على صحفة صغيرة منه مبالغ طائلة . (٣)

اما السمك نفسه فكانوا يأكلونه ايضا . وجدير بالذكر انه كان مرغوبا فيه من النصارى ايضا . فكانوا يأكلونه أكلا ذريعا. ويحدثنا الجاحظ انه لكثرة اقبالهم عليه كانوا يغلونه على الناس. حتى تتوخى اياما باعيانها فلا يشتري السمك الا فيها طلبا للامكان والاسترخاص وهي يوم الخميس ، ويوم السبت ويوم الثلثاء . (٤)

ومن المآكل التي كانوأ يعجبون بها البان الظباء . وكان الرشيد يسر بها . زار جعفر بن سليمان والي البصرة سنة ١٩٦ هن ، فاحضر له جعفر على مائدته البان الظباء وزبدها ، فاستطاب طعومها وسر بها . (٥)

---

(١) ثمار القلوب ، ص ٤٨٧
(٢) مطالع البدور ، ج ٢ ، ٤١ ـ والقول للرشيد .
(٣) مروج الذهب (بهية) ج ٢ ، ٢٧٩
(٤) الحيوان ، ج ٤ ، ٤٣١ ـ ٤٣٢
(٥) مطالع البدور ، ج ٢ ، ٥٩

وثمة لون آخر كانوا يشتهونه ، هو كبود الدجاج . ويحدثنا التنوخي ان ابراهيم الحراني الصابىء الطبيب كان بين يدي الموفق يوما ، فقال : انا اشتهي شهوة منذ سنتين ، واستقبح ان اطلبها . وقد عن لي الساعة مواضعتك على طلبها !

قال ابراهيم : قلت ياامير المؤمنين مره !

قال : ويحك انا والله منذ سنين كثيرة اشتهي كبود الدجاج وقوانصها مطبهجة ، واستقبح ان اطلبها . واريد اذا قدمت المائدة ، وجلست معي للاكل ، ان تشتهي ذلك على وتشير به من طريق الطب ، لأتقدم اليهم باتخاذه ، بشيء يسير ، فيصير ذلك القدر رسما فى كل يوم ، لايؤثر عليهم قدره .

قال : فعجبت من كرمه وفرط حيائه من خدمه حتى يلفق الحيلة . وقدمت المائدة ، فجلس يأكل وحده ، وجلست مع الندماء آكل على مائدة بين يديه . فلما اكل بعض اكله قلت : لم لايأمر امير المؤمنين بان يتخذ له شيء يسير في زبديات من كبود الدجاج المسمن وقوانصه بالبيض ؟

فاصلح له زبدية من كبود الدجاج وقوانصها وصار رسما جاريا . (١)

اما الخبز فكانوا ينوعونه ، ويتخيرون اطيبه . وكان الرشيد يأكل يومين متواليين خبز السميذ ، والثالث الحواري

---

(١) نشوار المحاضرة ، ج ٢ ، ٤٧

والرابع الخشكار ، والخامس والسادس خبز الارز النقي من خبز التنور . (١)

ويبدو ان الخبز وكثرته كان يؤثر فى نفس بعض الخلفاء ، فلقد سأل الواثق أحمد بن ابي دؤآد يوما : ماجمال الموائد !

فقال : كان يقال جمالها كثرة الخبز عليها !

فقال : اصبت واحسنت ، فان اختلفت الالوان ، وكان الخبز كثيرا شهد اصاحبها بالشرف . (٢)

***

فهذه بعض الالوان التي كان الخلفاء يرغبون فيها من المآكل وهي الوان فيها الغريب والنادر . وكانوا ينفقون في سبيل الحصول على هذه المطاعم الاموال الكثير . وقد ذكروا ان الرشيد كان ينفق على طعامه كل يوم عشرة آف درهم . (٣) وان نفقات المطابخ والمخابز بلغت فى القرن الرابع ، في دار الخلافة عشرة آلاف دينار فى الشهر . (٤) وهذا المبلغ دليل على كثرة الانفاق. وان كان اكثر هذا من باب الاسراف. ويحدثنا التنوخي ان المعتضد طلب يوما لونا من طعام ، فقيل له ماعمل اليوم ، فانكر ذلك وقال : يجب الا يخلو المطبخ من كل شيء حتى اذا طلب لم يتعذر. ووقع الى ديوان النفقات باقامة

---

(١) مطالع البدور ، ج ٢ ، ٤٢

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ٤١

(٣) مروج الذهب (بولاق) ج ٢ ، ٣٤٢

(٤) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع ، ج ١ ، ٢٤٧

ذلك اللون الى ان يرد التوقيع بقطعه . فكان يعمل وينفق عليه دراهم كثيرة ولا يحضر المائدة توقعا ان يطلبه ، وهو يصنع . وكان هذا اللون جزورية ، وكان الطباخ يذبح فى كل يوم قلوصا . (١)

على انه اذا كان بعض هؤلاء الخلفاء ينفقون الاموال على الدجاج وكبود الدجاج وعلى ألسنة السمك والجدآء وغير ذلك ، ويحرصون كل الحرص على التلذذ بها ، فقد كان بعضهم الآخر ، كالقاهر ، يستكثر صنوف الطعام ان توضع امامه ، ويقتصر على مايكفيه . (٢) وكان آخرون كالمهتدي لايأكلون غير الخبز النقي ومعه الملح والخل والزيت . (٣)

***

ويجب ان نذكر هنا أنه كان فى قصر الخلافة صاحب طعام وشراب . وقد ذكر ابن ابي الربيع الشروط ألتي ينبغي ان تكون فيه ، والاعمال التي ينبغي ان يقوم بها . قال :

« واما صاحب الطعام والشراب ، فينبغي ان يكون ثقة مؤتمنا عاقلا حرا مجلا للملك ، مجتهدا فى رضاه ، وأن يتلطف فى منع الملك عن بعض المطاعم ألتي لاتوافقه ، ويعرفه وجه المصلحة فى تركها . وان لايعرض عليه طعاما عرضه مرة قبلها، وينبغي ان يتصفح الطعام والشراب فى كل ساعة ، حتى الملح

---

(١) نشوار المحاضرة ، ج ٢ ، ١٥٢
(٢) الصابي ، ص ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٣٥٢
(٣) اخبار الخلفاء للسيوطي ، ص ١٤٥

والخل وأشباههما . وليكثر مراعاة الآلات ، فان رائحة الطعام وجودة عرفه وحسن تنضيجه ، يفتق الشهوة . ويجب ان يكون خبيرا بتنصيص الالوان وترتيبها واوقاتها ليختار لكل فصل مايليق به . وينبغي ان يكون عارفا بما يجلب من البلاد من المطاعم والمشارب ، والجيد منها والمغشوش . وان يكون ذا علم بأدب المجلس ، بصيرا بتعبئته ، وبحسن اوانيه . ويجب ان يكون عالما بما يهوى الملك من الاطعمة والاشربة فيبالغ فى اتخاذه وتجويده . » (١)

***

على أن بعض هؤلاء الخلفاء ماكانوا يقنعون بان يكون لديهم صاحب طعام يدبر امر طعامهم ، أو طهاة كما يشتهون ، بل كانوا انفسهم ذوي معرفة بالطبخ ، ومهارة فيه ، وعلم بتركيب الاطعمة ، واثر بعضها فى بعض .

ذكر الشابشتي ان المأمون جلس فى بعض الايام وامر بأن تحضر اللحوم والحيوان وما تحتاج اليه من آلة الطبخ ، وقال للندماء : ليطبخ كل واحد منكم قدرا !

وطبخ هو ايضا قدرا ، وطبخ اخوه ابو اسحق قدرا . ففاحت لهما روائح غلبت على روائح قدورهم طيبا وعطرية

---

(١) سلوك المالك فى تدبير الممالك ، ص ١٣٦

فعجبوا من ذلك ،وعبادة (١) حاضر . فحسده فقال : ان اردت ان تزيد فى طيب قدرك فصب فيها سكرجة كامخ !

فأخذ سكرجة كامخ وصبها فى القدر . فساعة صب السكرجة فاحت لها روائح منتنة . فقال المأمون : ويلكم ماهذه الروائح المنتنة ؟

فقال عبادة : رائحة قدر اخيك الطباخ !

قال : ماذا طرحت فيها حتى عادت بعد الطيب الى هذه الرائحة ؟

فقال : سكرجة كامخ اشار بها عبادة !

فقال : اما علمت أنك اذا أدخلت جسما ميتا على جسم حي افسده ؟

فحقدها المعتصم على عبادة . (٢)

وذكر المسعودي ان المعتصم جلس فى الجوسق حكما يوما في تمييز طعام طبخه ندماؤه ، فكان يأكل من كل قدر ويبين ميزتها ويصفها .

---

(١) هو عبادة المخنث . كان أبوه من طباخي المأمون

(٢) الديارات (دير الشياطين) . وانظر عن مهارة المأمون فى الطبخ ماذكره المسعودي . مروج ، ج ٩ ، ١٨ (باريس)

- ٩ -

الخلفاء العباسيون والتجسس

شغف الخلفاء العباسيون بالتجسس ومالوا اليه . وقد كان لابد لهم من تسقط الاخبار والحفول بها لئلا ينسبوا الى الضعف والغفلة أو يجترىء عليهم الأعدآء والاخصام . فان من أخلاق الملك اليقظ السعيد ، على قول الجاحظ ، البحث عن سرائر خاصته وعامته وإذكاء العيون عليهم ، والبحث عن كل خفي دفين . (١)

وبغداد ، وما كان فيهامن أخلاط المخلوقات وأنماط الناس، وما انتشر فيها من آراء سياسية وعصبية ، وما ظهر فيها من ميول شعوبية وعلوية وهاشمية ، كل هذا دفع الخلفاء الى التجسس ولم الاخبار ، ليحفظوا ملكهم ويكونوا على بينة مما يجري .

وقد ذكروا ان الرسول عليه السلام ، كان ، ليقظته ، يرسل الجواسيس والعيون يتجسسون أخبار أعدائه المشركين . ولم يكن عصر النبي عليه الصلوات ، كالعصر العباسي ، ولا كان

(١) التاج في أخلاق الملوك ، ص ١٦٧

المجتمع اذ ذاك كالمجتمع يومئذ . فليس من الغريب ان يشغف العباسيون بالتجسس ، فهو ضرورة من ضرورات الملك .

كان التجسس يجري على طريقتين : ظاهرة وخفية . أما التجسس علانية فكان يقوم به أصحاب الأخبار والبريد . وكانوا منتشرين في كل مكان . وكان عليهم أن يعرفوا حال العمال ، عمال الخراج ، والضياع ، وأن يتتبعوا ذلك تتبعا شافيا ، ويستشفوه استشفافا بليغا ، وأن ينهوه على حقه وصدقه ، وأن يعرفوا حال عمارة البلاد ، وما هي عليه من الكمال والاختلال ، وما يجري في امور الرعية فيما يعاملون به من الانصاف والجور ،والرفق والعسف ، فيكتبوا به مشروحا. وأن يعرفوا ماعليه الحكام في حكمهم وسيرهم وسائر مذاهبهم وطرائقهم . وان يعرفوا حال دار الضرب وما يضرب فيها من العين والورق . وما يلزمه الموردون من الكلف والمؤن . وفي كل ماينهونه ، ينبغي أن يكونوا صادقين ، واثقين مما ينهون . فأذا ورد كل ذلك على الحضرة سلم الى صاحب ديوان الانشاء ليحمله الى حيث يطلع عليه الخليفة ، ويأمر بما يرى . ثم يكتب للآفاق بما ينبغي . (١)

فهؤلاء ، كانوا جواسيس رسميين . أما الجواسيس الذين لا يظهرون أنفسهم ، ولا يعرفهم أحد ، فكانوا أنواعا

---

(١) الخراج لقدامه (دغويه) ، ص ٢٨ ـ ٣٢ و ١٨٤ ، ١٨٥

منوعة ، تفنن الخلفاء فى استخدامهم . وكان فيهم « الطفل والمراة والمحتاج والزمن وابن السبيل ... »

اول من عني بالتجسس الخفي من الخلفاء : ابو جعفر المنصور ، « فقد كان يشتري رقيقا من الرقيق ، ثم يعطي الرجل منهم البعير ، والرجل البعيرين ، فيهيمون ، أو يردون الماء كالمارين وكالضالين فيتجسسون ... » (١)

ويحدثنا الطبري ان ابا جعفر أتى مرة بأحد جنده ، فقال له : اخف شخصك واستر أمرك وائتني فى يوم كذا فى وقت كذا !

فأتاه ، فقال له : ان بني عمنا هؤلاء قد أبوا الا كيدا لملكنا واغتيالا له . ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا يكاتبونهم ويرسلون اليهم بصدقات اموالهم ، وألطاف من الطاف بلادهم . فأخرج بكسى وألطاف وعين حتى تأتيهم متنكرا بكتاب عن اهل هذه القرية . ثم تسبر ناحيتهم . فان كانوا قد نزعوا عن رايهم فأحبب والله بهم وأقرب . وان كانوا على رايهم علمت ذلك وكنت على حذر . فأشخص حتى تلقى عبد الله بن حسين متقشفا متخشعا ، فان جهلك ، وهو فاعل ، فاصبر وعاوده . فان عاد فاصبر حتى يأنس بك وتلين لك ناحيته . فان ظهر لك مافى قلبه فاعجل علي !

---

(١) الطبري ، حوادث سنة ١٤٤

فشخص الرجل حتى قدم على عبد الله فلقيه بالكتاب ، فأنكره ونهره ، وقال : ماعرف هؤلاء القوم !

فلم يزل ينصرف ويعود حتى قبل كتابه والطافه وانس به ، فسأله الجواب . فقال : اما الكتاب فلا اكتب لاحد . ولكن انت كتابي اليهم . فأقرئهم السلام ، واخبرهم ان ابني خارجان لوقت كذا وكذا .

فعاد الجاسوس الى ابي جعفر واخبره . (١)

وحدث صاحب عذاب ابي جعفر قال : دعاني أبو جعفر ذات يوم ، واذا بين يديه جارية صفرآء ، وقد دعا لها بأنواع العذاب ، وهو يقول لها : ويلك اصدقيني ، فوالله ماأريد الا الالفة . ولئن صدقتني لأصلن الرحم ، ولاتابعن البر اليه !

واذا هو يسألها عن محمد بن عبد الله وهي تقول : ماعرف مكانه .

ودعا بالدهق وامر به فوضع عليها . فلما كادت نفسها ان تتلف قال : أمسكوا عنها !

وكره ماراى . وقال لأصحاب العذاب : مادوآء مثلها اذا صار الى مثل حالها ؟

قالوا : الطيب تشمه ، والماء البارد يصب على وجهها ،

---

(١) الطبري ، حوادث سنة ١٤٤

وتسقى السويق . فأمر لهــا بذلك ، وعالج بعضه بيده ، حتى أفاقت ، وأعاد عليها المسألة . فأبت الا الحجود . فقال لهــا : أتعرفين فلانة الحجامة ؟

فأسود وجهها وتغيرت . فقالت : نعم ياأمير المؤمنين ، تلك فى بني سليــم .

قــال : صدقت ، هي والله أمتي ، ابتعتها بمالي ، ورزقي يجري عليها فى كل شهر . أمرتها ان تدخل منازلكم وتحجمكم وتعرف أخباركم . أو تعرفين فلانا البقال ؟

قالت : نعم ، هو فى بني فلان !

قال : هو والله مضاربي بخمسة دنانير أمرته ان يبتاع بها كل مايحتاج اليه من البيوع . فأخبرني ان أمة لكم فى يـــوم كذا من شهر كذا ، عند صلاة المغرب ، جــاءت تسأله حنـــاء وورقــا ، فقال لها : ماتصنعين بهــا ؟

فقالت : كان محمد بن عبد الله فى بعض ضياعه بناحيـــة البقيع ، وهو يدخل الليلة . فأردنا هذا لتتخذ منه النســـاء مايحتجن اليه عند دخول ازواجهن من المغيب .

قال : فأسقط فى يدها ، وأذعنت بكل ماأراد . (١)

وهذه القصة ، والتي قبلها ، تبينان لنا كيف سخــر ابــو

---

(١) المحاسن والمساوىء للبيهقي (شوالي) ، ص ١٦٠

جعفر أحد جنده ، وأمته ، وبقالا مضاربا له للتجسس وجمع الاخبار .

ولعلك تعلم حبه تتبع الأسرار مما سأقصه عليك . قالوا : ان أبا جعفر قال ذات يوم لأصحابه : ماأحوجني أن يكون على بابي اربعة نفر لايكون أعف منهم ، وهم اركان الدولة ، ولا يصلح الملك الا بهم . أما أحدهم فقاض لاتأخذه فى الله لومة لائم . والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي ، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية !

ثم عض المنصور على اصبعه السبابة ثلاث مرات وهو يقول فى كل مرة : آه ، آه ، آه !

قيل : ماهو ياأمير المؤمنين ؟

قال : صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة . (١)

***

وكان الرشيد من اشد الملوك بحثا عن أسرار رعيته . واكثرهم بها عناية ، وأحزمهم فيها أمرا (٢) . وكان يتسقط اخبار الهادي قبل ان يصبح هو خليفة . فقد كان مسرور الكبير فى خدمة المهدي ، وكان الرشيد حفيا به محسنا اليه .

---

(١) التمدن الاسلامي ، ج ١ ، ٢٢١

(٢) التاج ، ص ١٧٠

فلما انتقل امر الخلافة الى الهادي قال له الرشيد : اخي قوي الشراسة ، وانا اخاف ايقاعه بي وجمع الناس على بيعة ابنه بعده ، وانا على غاية الثقة بك ، فاعدل اليه ، وكن له عينا عليه . .

فتقدم مسرور عند الهادي حتى تولى ستر بيت خلوته . فكان ينهي الي الرشيد كل كلمة من كلماته ، وفعل . (١)

وكتب الأدب والتاريخ مترعة بأخبار تتبعه أسرار رعيته ، حتى كان ذلك يدفعه الى اخفاء شخصه ، والطواف مع جعفر بن يحيى فى الأسواق وبين الاحياء ليتسقط الاخبار ويعرف ما يدور بين الناس من الاحاديث ويستطلع ما لايصل اليه خبره . (٢)

ولم يقنع بأسرار رعيته ، بل وكل عيونا على ولديه . فكان مسرور الخادم رقيب المأمون ، وكان جبرائيل بن بختيشوع رقيب الامين . (٣)

وعلى نحو هذا كان المأمون فى أيامه . ذكر ابو الفرج أنه لما تولى الخلافة واتى بغداد ، كان يتجسس على ابراهيم بن

---

(١) المكافأة وحسن العقبى (محمود شاكر) ، ص ٦٣

(٢) الاغاني مثلا ، ج ٦ ، ١٢٧

(٣) الكامل لابن الاثير ، ج ٦ ، ٨٣

المهدي . فألزمه رجلا ينقل اليه كل مايسمعه من لفظه جـدا او هـــزلا . (١)

ويسوق الجاحظ دليلا على تتبع المأمـون أسـرار رعيته رسالته الى اسحق بن ابراهيم فى الفقهاء واصحاب الحديـث وهو بالشام التي خبر فيها عن عيب واحد واحد ، وعن حالته واموره التي خفيت ، او اكثرها ، عن القريب والبعيد . (٢)

وقد ذكر صاحب محاضرة الأوائل أنه كان للمأمون الـف عجوز وسبعماية ، يتفقد بهن أحوال الناس من الاشقياء ومن يحبه ويبغضه ، ومن يفسد حرم المسلمين . وكان لايجلـس الى دار الخلافة حتى تأتيه اخبارهن ، وانه كان يدور ليـلا ونهـارا مستتـرا .

وقد يكون هذا الخبر صحيحـا فيمـا يتعلـق بارسـال العجائز ، امـا عددهن ، وانه كان لايجلس الى دار الخلافـة حتى تأتيه اخبارهن ، فقد يكون فيه مبالغة .

وكان المأمون يعني بمعرفة أحوال عماله . فكان يفحـص عنهم وعن دفين اسرار حكامه فحصا شافيا ، فلا يخفى عليه مايفيد كل امرىء وما ينفق ، وكان من نأى عنه كمن دنا منه فى بحثه وتنقيره . وكان يتتبـع أحـوال القضاة والـولاة

---

(١) الاغاني ، ج ٢٠ ، ٨٢

(٢) التاج ، ص ١٧٠

والجند . (١) فذكروا انه سأل يوما جماعة : من انبل من تعلمون نبلا وأعفهم عفة ؟

فذكر كل من يراه ، فقال : لا ، ذاك عبد الله بن طاهر دخل مصر كالعروس الكاملة ، فيها خراجها ، وبها أموالها جمة . ثم خرج عنها . فلو شاء أن يخرج عنها بعشرة آلاف دينار لفعل . وقد كان لي عليه عين ترعاه ، فكتب الي أنه عرضت عليه أموال لو عرضت على لشرهت اليها نفسي ، ولقد خرج عن ذلك البلد وهو بالصفة التي قدمه فيها . الا مائة ثوب ، وحمارين ، وأربعة افراس . (٢)

وحدث بشر بن الوليد قال : كنت عند المأمون ، فقال : ولينا رجلا قضاء الأبلة ، واجرينا عليه فى الشهر الف درهم ، وماله صناعة ولا تجارة ولا مال من قبل ، ولا بيت ابتناه وولينا رجلا آخر قضاء دمشق واجرينا عليه الف درهم ،اشار علي به محمد بن سماعة ، فأقام بها اربعة عشر شهرا فوجهنا من يتتبع أمواله فى السر والعلانية . ويتعرف حاله ، فأخبر انه وجد ماظهر من ماله فى هذا المقدار من دابة وغلام وجارية وفرش واثاث قيمته ثلاثة آلاف دينار . وولينا رجلا نهاوند فأقام بها أربعة وعشرين شهرا ، فوجهنا من يتتبع امواله .

---

(١) المحاسن والمساوىء ، ص ١٦٤

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٣

فاخبرنا أن فى منزله خدما وخصيانا بقيمة ألف وخمسماية دينار ، سوى نتاج قد اتخذه . (١)

وذكر ابراهيم بن السندي أنه جالس المأمون ومعه ابراهيم ابن المهدي . فطفق يحدث عن أهل عسكره ، حتى والله لو ان رجلا اقام فى رحل كل رجل من الجند حولا ، لما زاد على معرفته ، لشدة تنقيره وتتبعه أخبار الناس . (٢)

فهذه الحوادث كلها ، تدل على حبه التجسس ، ودس الناس ليتسقطوا له الأخبار ويطلعوه على مايشاء .

وثمة خليفة آخر اولع ببث العيون وتسقط الاخبار ، حتى على وزرائه وخاصته ، وهو المعتضد . وقد أورد التنوخي قصة تدل على مبلغ شغف هذا الخليفة بالتجسس ، ومهارة المتجسسين فى ذلك العصر . فقد كان القاسم وزيره يحب الشرب واللعب ، ويخاف ان يتصل بالخليفة خبره ، فيستنقصه وينسبه الى الصبوة والتهتك والتشاغل فى اللذات عن الاعمال . وكان لايشرب الا على أخفى واستر مايكون . فخلا يوما مع جوار مغنيات ، ولبسن من ثيابهن المصبغات ، واحضر فواكه كثيرة ، وشرب ولعب من نصف النهار الى نصف الليلة الأخرى . ونام بقية الليلة ، وبكر الى المعتضد للخدمة على رسمه ، فما أنكر شيئا .

---

(١) المحاسن والمساوىء ، ص ١٦٢

(٢) تاريخ بغداد لطيفور ، ص ١٠٠

وبكر فى اليوم الثاني ، فحين وقعت عين المعتضد عليه قال له : ياقاسم ، ماكان عليك لو دعوتنا الى خلوتك والبستنا من نيابك المصبغات ؟

فقبل الارض ، واظهر الشكر على هذا التبسط . وخرج وقد كاد يتلف غما لوقوف المعتضد على هذا القدر من امره وكيف لاتخفى عليه مواقفه . فجاء الى داره كئيبا . وكان له فى داره صاحب خبر يقال له خالد يرفع له امورها فأحضره وعرفه بما جرى بينه وبين المعتضد ، وقال له : ان بحثت لي عمن أخرج هذا الخبر زدت فى رزقك واجزتك كذا ، وان لم تعرفه نفيتك الى عمان ، وحلف له على الامرين :

فخرج صاحب خبره من حضرته متحيرا كئيبا لايدري مايعمل ، وأخذ يفكر ويحتال ويجتهد .

قال صاحب الخبر : فلما كان من الغد بكرت الى دار القاسم ، زياده تبكير على ماجرى به رسمي ، لفرط سهري وقلقي تلك الليلة ومحبتي للبحث . فجئت ولم يفتح باب دار القاسم بعد فجلست . فأذا برجل يزحف فى ثياب المكدين ، ومعه مخلاة كما يكون مع المكدين . فلما جاء الى الباب جلس حتى فتح ، فسابقني الى الدخول ، فأولع به البوابون وقالوا : اي شيء خبرك يافلان ؟

وصفعوه ، فمازحهم وطايبهم ، وشتمهم وشتموه ، وجلس فى الدهليز فقال : الوزير يركب اليوم ؟

قالوا : نعم . . . الساعة يركب !

قال : واي وقت نام البارحة ؟

قالوا : وقت كـذا !

فلما رايته يسأل عن هذا خمنت انه صاحب خبر ، فأصغيت اليه ، ولم ارهم يحفلون بأمره . وهو لم يدع بوابا ممن وصل الى الوزير وممن لايصل الا سأله عنه . وكان يبداه بأحاديث اخرى على سبيل الفضول ، ثم زحف ، فدخل الى جنب اصحاب الستور ، فأخذ معهم فى مثل ذلك ، واخذوا معه فى مثله . ثم زحف فدخل الى دار العامة . فقلت لأصحاب الستور : من هذا ؟

قالوا : رجل زمن فقير ابله طيب النفس يدخل الدار ، ويتطايب ، فيهب له الغلمان والمتصرفون !

فتبعته الى ان دخل المطبخ ، فسأل عما اكل الوزير ، ومن كان معه على المائدة ، وفى اي شيء افاضوا . والطباخ والغلمان غلمان صاحب المائدة ، كل واحد يخبره بشيء . ثم خرج يزحف حتى دخل حجرة الشراب ، فلم يزل يبحث عن كل شيء . ثم خرج الى خزانة الكسوة ، فكانت حالته وصورته هذه . ثم جاء الى مجلس الكتاب فى الديوان ، فأقبل يسمع مايجري ، ويسأل الصبي بعد الصبي ، والحدث بعد الحدث، عن الشيء بعد الشيء ويخلط الجد بالمزاح والتطايب بكلامه ،

والأخبار تنجر اليه وتتساقط عليه . والقطع تجيئه ، وهو يملأ تلك المخلاة .

فلما فرغ من هذا اقبل راجعا . فلما بلغ الباب تبعته ، فرجع حتى جاء الي موضع من الخلد فدخل اليه ، فوقفت أنتظره ، فأذا هو بعد ساعة قد خرج بثياب حسان ماشيا . . . فتبعته حتى جاء الى دار قرب دار الخادم الموكل بحفظ دار ابن طاهر فدخلها ، فسألت عنها ، فقالوا « هذه دار فلان الهاشمي ، رجل متجمل » . فرصدته الى وقت المغرب فجاء خادم من دار ابن طاهر فدق الباب . فكلمه من خوخة له ، فصاح به ،ورمى اليه برقعة لطيفة ،فأخذها الخادم وانصرف. فبكرت من سحر الى الدار التي فى الخلد ، ومعي غلمان ، فأذا انا بالرجل قد جاء بزيه الذي دخل به داره . فكبسته فى الموضع فأذا هو قد نزع تلك الثياب ، ولبس ثياب المكدين التي رايتها عليه اولا ، فحملته وغطيت وجهه وكتمت امره ، حتى ادخلته دار القاسم ودخلت اليه وقصصت عليه الخبر ، فاستدعاه وقال : لتصدقني الخبر اولا ترى ضوء الدنيا ولا تخرج من هذه الحجرة .

قال : تؤمنني ؟

قال : انت آمن !

فنهض وقال : انا فلان بن فلان الهاشمي ، رجل متجمل ، وأنا اتخبر عليك للمعتضد منذ كذا . . . ويجري علي المعتضد خمسين دينارا فى الشهر . اخرج كل يوم بالزي الذي لاينكره

جيراني ، فأدخل دارا فى الخلد بيدي منها بيت بأجرة ، فيظن اهلها اني منهم ، ولا ينكرونني لزيي . فأخرج هنا بهذه الثياب واتزامن من الموضع ، والبس لحية فوق لحيتي مخالفة للوني، حتى لايعرفني من لايلقاني فى الطريق ، وامشي زحفا الى دارك ، فأعمل جميع ماعرفت واقتفي اخبارك من غلمانك ، لايعرفون غرضي ، ويخرجون لي بالاسترسال مالو بذل لهم فيه من الاموال الكثير لم يظهروه ، ثم اخرج الى موضع من الخلد فأغير ثيابي ، واعطي ما اجتمع معي فى المخلاة للمكدين ، والبس ثيابي الحسان ، وأعود الى منزلي . فاذا كان المساء جاءني خادم من خدم ابن طاهر مندوب لهذا ، فأرمي اليه برقعة فيها خبر ذلك اليوم ، ولا افتح له بابا . فاذا كان آخر الشهر جاءني فأعطيته الرقعة ويعطيني الجائزة . »

قال صاحب الخبر : فحبسه القاسم أياما ، فحسبه أهله أنه مات . فأقاموا عليه المآتم . فدخل القاسم على المعتضد فقال له : ابراهيم الهاشمي التزامي ، بحياتي أطلقه وأحسن اليه ... وأنت آمن من بعدها من ان انصب عليك صاحب خبر .

فتركه القاسم ، وانقطعت اخباره عن المعتضد . (١)

***

فهذه قصة رائعة طريفة تدل على مبلغ حب المعتضد تسقط الأخبار ، ومبلغ مهارة اهل ذلك العصر فى الحيلة والبراعة في التجسس . وهي قصة لاتحتاج الى تعليق ، فما قرأت في بابها فى كتبنا القديمة اشوق منها ولا احلى .

ومن هذه القصة ، ومن الأخبار التي سردناها من قبل ترى ماكان للتجسس من شأن عند الخلفاء العباسيين .

---

(١) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ٩٢

ملاهـــي الخلفـــاء

افتن الخلفاء العباسيون فى اقتناص اللهو . وتخيروا منــه الوانا منوعة ، فى بعضها قوة ورجولة ، وفى بعضها الآخر رقة ونعومة . وقد ساعدتهم الحضارة والترف على الاغراق في اللهو حتى كان بعض الخلفاء يؤثر اللهو على كل شيء .

ونسوق هنا طرائف من ملاهي الخلفاء ، تبين ماكانوا عليه فى هـــذا البــاب .

١ ـ الرياضة والمصارعة ورفع الاثقال

فممن اولع بالرياضة الأمين . كان قويا يحـب المصارعة . صارع اسدا مرة فأزال للاسد اصابعه عـن مواضعها (١) . وكان المعتصم قوي البنية ، فساعده ذلك على رفـع الاثقال ، كان يحمل الف رطل ويمشي بها خطوات (٢) . وحمل مـرة بابا من حديد فيه سبعمائة وخمسون رطلا (٣) .

---

(١) مروج الذهب (بهية) ، ج ٢ ، ٣٠٢

(٢) الفخري ، ص ٢٠٩

(٣) العقد الفريد (مصر ، ١٩٣٥) ، ج ٢ ، ٣٠٤

واولع المعتضد بالمصارعة ايضا . فيقولون انه اراد ان يصارع اسدا ، فأقبل يمشي اليه ، فعاجله بضربة وثنى باخرى ، ففلق هامته ، فخر صريعا . فمسح السيف في صوفه حتى نظفه ، ورجع فأغمد السيف (١) .

٢ ـ الصوالجة

وكانوا مولعين بالصوالجة ، وهي ضرب الكرة من ظهور الخيل . واصل هذه اللعبة فارسي . (٢) فكانوا يبنون لها ميادين خاصة فى قصورهم (٣) .

كان الرشيد اول خليفة لعب بالصولجان فى الميدان ، ولعب بالنشاب فى البرجاس ،ولعب بالاكرة والطبطاب (٤) .

واخذ عنه ولداه حب الصوالجة . فكان المأمون ينزل الى الحلبة كل يوم (٥) . وأصبح الامين بعد بيعته بيوم فأمر ببناء ميدان حول قصر ابي جعفر للصوالجة واللعب (٦) .

واولع المعتصم بركوب الخيل واللعب بالصوالجة (٧) . ويذكرون انه لعب مرة مع اسحاق بن ابراهيم المصعبي ، ثم صارا الى حجرة الحمام فدلكا جسديهما ثم ناما .

---

(١) نشوار المحاضرة ،ج ٢ (مجلة المجمع العلمي ، المجلد ١٧، ص ٤٥٢)
(٢) الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ٢١٨
(٣) الوزراء للصابي ، ص ١٣٨
(٤) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٥١٦
(٥) تاريخ بغداد لطيفور ، ص ١٠٧
(٦) الطبري ، حوادث سنة ١٩٣
(٧) ابن الاثير ، ج ٦ ، ٢١٦

وكذلك اولع المنتصر بالصوالجة ولعا شديدا .

٣ ـ الصيد

وغالى الخلفاء بالعناية بالصيد وشغفوا به . فقد استهوتهم ملاذه ومحاسنه ،ولغراهم مايستفاد به من النشاط والاريحية، والمران ، والرياضة ، والخفوق ، والحركة ، وانبعاث الشهوة ، ودفعهم اليه مافيه من الفروسية ، والتعلم على ركوب الخيل ، صعودا اد حدورا ، كرا او انكفاء ، وتعطفا او انثناء (١) .

كان ابو العباس السفاح كثير اللهج بالصيد ، لم يتركه ناشئا ومكتهلا . (٢)

وركب المنصور يوما ، في صدره مشهرة ، وعلى يده بازي حتى عبر جسر بغداد بادئا ،وانكفأ فعبر الجسر الاخر راجعا. فلما عاد قال للربيع : ماقال الناس فى ركوب امير المؤمنين ؟ قال : عجبوا منها . قال : انه كان لامير المؤمنين فى ذلك مذهب وهو انه سيأتي من ابنائنا من يحب الصيد ، ويتبذل فيه . فأحببت ان يكون مني مارايت . فمتى فعل مثله منا فاعل بعدي قال الناس : قد ركب المنصورعلى مثلهذه الصورة.(٣)

وكان المهدي يخرج الى الصيد ، وعني بتربية الكلاب التي تسبق الظليمفى عدوها ، والبسها اطواقا منذهب ، ووكل بكل

---

(١) البيزرة (كرد علي) ، ص ٥٣
(٢) المصدر السابق
(٣) المصدر السابق ، ص ٥٧

كلب عبدا يخدمه (١) . وفى هذا مشابه لما كان يفعله يزيد ابن معاوية فقد كان اشد الناس كلفا بالصيد لايزال لاهيا به ، وكان يلبس كلاب الصيد الاساور من الذهب والجلال المنسوجة منه ، ويهب لكل كلب عبدا يخدمه (٢) .

والمهدي هذا كان لايكاد يغب الصيد ، وكان مجدودا فيه لايحرم ، حتى قال فيه بعض شعرائه :

يغدو الامام اذا غدا للصيد ميمون النقيبه
فيؤوب ظافرة جوارحه واكلبه الاديبه
بمخالب وبراثن بدماء مااقتنصت خضيبه
وسهامه لوحوشه والطير قاصدة مصيبه
وكأنما عرفته فانقادت لدعوته مجيبه (٣)

وكان يخرج اذا خرج بحفاوة ، وخرج مرة ومعه ابو دلامة يحوطه الفرسان متنكبين قسيهم ، متقلدين سيوفهم ، تتبعه الجند ، وقد حمل طائفة من الجند المؤن على الخزائن (٤) .

وكان للرشيد حظ من الصيد . وكان يرتاح اذا حضره ارتياحا شديدا حتى تحمله الاريحية على ركض فرسه ،والشد فى اثر الطريدة (٥). وكان كلما حل فى مكان خرج يتصيد (٦).

---

(١) حضارة الاسلام ، ص ٩٥
(٢) الفخري ، ص ٦٧
(٣) البيزرة ، ص ٥٨
(٤) حضارة الاسلام ، ص ٩٦
(٥) البيزرة ، ص ٥٩
(٦) الاغاني ، ج ٥ ، ١١٦

ولم يثن العلم والادب المأمون عن الصيد . فكان يخرج اليه. ويذكرون انه خرج ذات يوم لصيد الظباء فاصطادته غادة حسناء فقال :

خرجنا الى صيد الظباء فصادني
هناك غزال ادعج العينين احور

وصار فؤآدي اذ رماني بسهمه
وسهم غزال الانس طرف ومحجر

فيامن راى ظبيا يصيد ومن راى
اخا قنص يصاد قهرا ويقسر (١)

وكان لايفضل على الصيد شيئا ايا كان . ركب يومابدمشق يتصيد حتى بلغ جبل الثلج ، فاعترضته فى بعض الطريق بركة عظيمة فى جوانبها اربع سروات لم ير احسن منها ولا اعظم . فنزل وجعل ينظر الى آثار بني امية ويعجب منها ويذكرهم (٢) .

وكان المعتصم اكثر هؤلاء الخلفاء محالفة للصيد واخفهم فيه ركابا ، وكان يلهج به كثيرا ، ويقطع ايام بطالته فيه . وبنى فى ارض دجيل بستانا طوله فراسخ كثيرة . فكان اذا ضرب حلقة من الحمر يضايقها ولا يزال يحدها حتى تدخل وراء الحائط فتصير بين البستان وبين دجلة ، فلا يكون لها

---

(١) الاغاني (ساسي) ج ١٠ ، ١٢٦
(٢) الاغاني (دار) ج ٤ ، ٩٧

مجال . فاذا انحصرت دخل هو وولده واقاربه وخــواص حواشيه وتفننوا فى القتل . (١)

وكان اذا صاد عاد بصيد كثير . ذكــر اسحــق الموصلي قال : دخلت يوما على المعتصم وقد رجع من الصيد ، وبــين يديه ظباء مذبحة وطير ماء وغير ذلك ، وهو يشرب . (٢)

اما الواثق فقد كان يخرج الى الصيد فى نواحي عكبرا (٣) وكان يخرج الى القاطول . (٤) ويحمل معه الجلساءوالمغنين وفيهم اسحق الموصلي ، وعمرو بن بانة . (٥) ويصطـــاد الاوز والدراج وطير المـــاء . (٦) والسمــك على شــاطىء دجلة . (٧)

ثم كان المعتضد كالمعتصم فى اكثر اموره ومآربه لمباشــرة الحرب والصيد ، فلم يكن ينفك من حرب الا الى صيد ، ولا من صيد الا الى حرب . وكان يخرج لصيد الاسود فيخيم عليهــا حتى لايبقى منها باقية . (٨)

وكان لهو المكتفي الدائم الصيد ، الا انه كان اكثر مايدمنــه

---

(١) الفخري ، ص ٦٥
(٢) الاغاني ، ج ٢ ، ٨٢
(٣) زهر الاداب ، ج ٢ ، ٢٢١
(٤) الاغاني ، ج ٥ ، ١٠٥
(٥) المصدر السابق
(٦) المصدر السابق ، ص ١٧١
(٧) القفطي (المانية) ، ص ٢٨٧
(٨) البيزرة ، ص ٦٢ — ٦٣

الصيد بالفهد والعقاب ، وهما سبعا الضواري والجوارح . وكان يباشر ذلك بنفسه . قال صاحب كتاب البيزرة : كان شديد الشغف بذلك ، يرتاح اليه . اخبرني بذلك ابو بكر محمد بن يحيى الصولي ، واخبرني من رآه بظاهر انطاكية ، منصرفه مع المعتضد عند اخذه وصيفا الخادم . (١) وكان المكتفي اذا خرج الى الصيد أخرج معه العسكر (٢) .

وكان المتقي يخرج الى الشماسية لصيد السباع .

فأنت ترى ان هؤلاء الخلفاء شغفوا بالصيد على انواعه ، وجعلوه لهوا من لهوهم ، وخاطروا فيه حتى جعلوا همهم صيد الاسد والسباع والجوارح .

٤ ـ النرد والقمار

ويظهر ان بعض الخلفاء كانوا يلعبون ويقامرون . ذكر ابو عبد الله محمد بن احمد بن حمدون قال : كنت قد حلفت وعاهدت الله ان لاعقد مالا من القمار وانه لايقع فى يدي منه شيء الا صرفته فى ثمن شمع يحترق ، او نبيذ يشرب ، أو جذر مغنية ، فجلست يوما الاعب المعتضد فقمرته بسبعين الف درهم (٣)

وذكر صاحب « الاغاني » ان الرشيد لعب مع ابراهيم

---

(١) البيزرة ، ص ٦٥
(٢) الصابي ، ص ١٢٨
(٣) الاذكياء لابن الجوزي ، ص ٣٥

الموصلي بالنرد ، في الحلقة التي كانت على الرشيد ، فقمر الرشيد ،فقام فنزع ثيابه وقال للرشيد : حكم النرد الوفاء به، وقد قمرت ووفيت لك .. فألبس ماكان علي . قال الرشيد : ويلك انا البس ثيابك ؟ فقال اي والله ! وما زال حتى نزع ماكان عليه فدفعه الى ابراهيم (١) .

وكان الامين يلعب بالنرد مع وزيره الفضل بن الربيع فيغلبه (٢) .

وكان الفتح بن خاقان يلاعب المتوكل . كانا مرة يلعبان فأستؤذن للقاضي احمد ابي دؤاد ، فاراد الفتح رفع النرد فمنعه المتوكل وقال له : اجاهر الله بشيء وأستره عن عبادة ؟ (٣) .

وهناك امثلة اخرى ، نكتفي بذكر ماذكرنا .

٥ ـ الشطرنج

وكان الخلفاء العباسيون يلهون بالشطرنج لهوا كبيرا ، وكانوا يعدونه في ذلك العصر من الاداب . قال الحسن بن سهل : الآداب عشرة ، ثلاثة شهرجانية ، وثلاثة انو شروانية ،وثلاثة عربية . اما الشهرجانية فضرب العود ، ولعب الصوالج ،ولعب

---

(١) الاغاني ، ج ٥ ، ٣٩

(٢) الفخري ، ص ٥٥

(٣) زهر الاداب ، ج ٤ ، ٣١

الشطرنج . واما النوشراوانية ، فالطب والهندسة والفروسية . واما العربية فالشعر والنسب وايام الناس (١) .

وقدكان الخلفاء العباسيون يعنون بالاداب الشهرجانية عناية كبرى ، وقد رايت بعض احتفالهم بالصوالجة ، وسترى مبلغ ولوعهم بالغناء والضرب على العود ، اما الشطرنج فكانوا يحبونه . وكان المأمون لايتركه ويقول : هذا يشحذ الذهن . (٢) حتى انه لما قدم من خراسان اراد ان يتلهى فلم يجد ما يتلهى به غير الشطرنج . (٣) ونسبوا اليه انه قال فى وصف الشطرنج شعرا . (٤)

وكان الرشيد يلعب الشطرنج اذا سافر فى دجلة فى حراقته . (٥)

وكان المتوكل يرى ندماه يلعبون الشطرنج بين يديه . (٦) وتوصل الصولي بالشطرنج الى منادمة الراضي ، والف له كتابا فيه .

وكذلك اولع بالشطرنج المعتضد ، وقد كانوا يشترطون فى

---

(١) زهر الاداب ، ج ١ ، ١٩٥
(٢) أخبار الخلفاء ، ص ١٢٨
(٣) محاضرات الادباء ، ج ١ ، ٤٤٨
(٤) مجلة الزهراء ، مجلد ١ ، ص ٤٤٨
(٥) الاغاني ، ج ٩ ، ٦٤
(٦) الفهرست ، ص ١٥٥

النديم ان يكون شطرنجيا ، واذا كانت القينة شطرنجية زادت قيمتها وزادت الرغبة فيها ،نظرا لجمعهابين الانوثة والمنادمة.

٦ ـ تربية الحيوانات وجمعها

وكان الخلفاء يتلهون بجمع الحيوانات والنظر اليها . كـان للمنصور عناية بجمع الفيلة ، (١) وكان يجمع الخيل حتـى انه اجتمع له مـن الخيـل مالم يعـرف مثله فى جاهلية ولا اسـلام .

وكان الرشيد يلتذ بمراى الخيل ، ويجريها امامـه (٢) وكان يجمع الاسود والنمور وغيرها فى الاقفاص (٣) .

وكان لزوجته زبيدة قرد مولعة به ، فمات . فساءها ذلك ونالها من الغم ماعرفه يومئذ الصغير والكبير من خاصتهـا ، حتى ان ابا هارون العبدي كتب اليها يعزيها فيه (٤) .

وكان الامين يشرب ويشرف على حير الوحـش عنـده . وقد غناه مرة ابراهيم بن المهدي وهو مخمور يشرف علـى الحيـر . فما ابتدأ يغني حتى اصغت الوحش اليه ومـدت اعناقها ، ولم تزل تدنو منه حتى كادت ان تضع رؤوسها على

---

(١) العقد الفريد ، ج ١ ، ١٥٠

(٢) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٢٧٩

(٣) العقد ، ج ١ ، ١٥٠

(٤) زهر الاداب ، ج ٤ ، ١٠١

الدكان الذي كانوا عليه . فلما سكت نفرت وبعدت . فعجب الامين أشد العجب من ذلك (١) وهـذا الخبر يـدل علـى مبلغ تعلق الامين بالوحش ، فالشرب لايكون الا على ماهـو جميل يحب . وقد كان الامين يحب الوحش . وكذلك يـدل على براعة ابراهيم فى الغناء حتى انه اطرب الوحش فحنـت اليه وقربت منـه .

وكان المعتصم يحب الخيل ، ويلتقط احاسنها ، حتى انـه أخذ فرسا اشهب من عند ابن الزيات ، وكان أعجب به (٢).

وبنى المقتدر فى دار الشجرة حيرا كبيرا ، وكان فيه مـن اصناف الوحش قطعان تقرب من الناس وتشمهم وتأكل من ايديهم ، وفيها اربعة فيلة مزينة بالديباج والوشي ،وفيها مائة سبع ، خمسون يمنة وخمسون يسرة ، كل سبع فى يـد سباع ، وفى رؤوسها واعناقها السلاسل والحديد (٣) .

ويذكر المسعودي ان الخلفاء كانوا يعنون ايضا بمناطحـة الكباش . وانه كان لديهم كباش يناطحبها بين يديهم ،وديوك. فلما جاء المهتدي بالله ذبحها جميعا . (٤)

٧ ـ الشـراب والغنـاء والمجـون

ونأتي الان الى ضرب من ضروب اللهو تشارك فيه اغلب الخلفاء

---

(١) الاغاني ، ج ٩ ، ٥٣
(٢) زهر الاداب ، ج ٢ ، ١٨٧
(٣) تاريخ بغداد للخطيب ، ج ١ ، ١٠٥
(٤) مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٤٣٦

هو الشراب وما يتبعه من غناء ، ورقص ، ومنادمة ، ومجون . ونحن نعلم ان اهل العراق كانوا لايرون بالشراب بأسا . (١) لذلك انتشرت دور الخمر ، فى كل مكان . (٢)

لم يؤثر عن السفاح انه آثر اللهو والخلاعة او انغمس في المجانة ، فاذا سمع غناء طرب وصاح من وراء الستار فيعاد الصوت . ولم ير فى دار المنصور لهو قط ، ولا شيء يشبه اللهو واللعب والعبث . (٣) وكان لايشرب على مائدته شراب (٤) ولم يكن يظهر لندمائه بشرب ولا غناء ، بل كان يجلس وبينه وبين الندماء ستارة ، وبينهم وبينها عشرون ذراعا . (٥)

واول من ظهر للندماء فى الشراب من خلفاء بنى العباس المهدي . (٦) وكان قد احتجب باديء ذي بدء عن المغنين ، ثم قال : انما اللذة فى مشاهدة السرور وفى الدنو ممن سرني ، فأما من وراء وراء فما خيرها ولذتها ؟ (٧)

ثم اطلق عنان شهواته ، فلذ وترف وتنعم ، فأخرج قصره ولديه زينة الدنيا وبهجة عصرهما فى الظرف والغناء : ابراهيم بن المهدي ، وعلية بنت المهدي . (٨)

---

(١) انظر كتاب الاشربة لابن قتيبة (كرد علي)
(٢) الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ٢٠٢
(٣) الفخري ، ص ١٨٧
(٤) الطبري ، ج ٩ ، ٣٠٩
(٥) اخبار الخلفاء للسيوطي ، ص ١٠٥
(٦) المصدر السابق ، ص ١٠٥
(٧) التاج ، ص ٣٥
(٨) ضحى الاسلام ، ج ١ ، ١٠٨

وكان الهادي يتناول المسكر ، ويلعب ، ويركب حمارا فارها ، ولا يقيم للخلافة ابهة . (١) وكان يأمر للمغني بالمال الخطير الجزيل . غناه ابراهيم الموصلي يوما فقال للقيم على الخزانة : ادخله بيت المال فليأخذ منه ماشاء . (٢)

واولع الرشيد بالغناء ، وكان ابراهيم بن المهدي يغني اخاه الرشيد فيستمع اليه ويطرب ، وكان ابو عيسى بن الرشيد يقول لعمه : السكر على صوتك شهادة ياعم (٣) .

وكان اذا شرب لم يحضر شربه الا خاص جواريه (٤) . وكان يشرب فى كل جمعة مرتين ، وربما قدم ايامه واخرها ، على انه لم يره احد قط يشرب ظاهرا . (٥) ولكنه كان يشرب مع ندماه ومغنيه .

والرشيد هو الذي جعل للمغنين مراتب وطبقات ، فكان ابراهيم الموصلي وابن جامع وزلزل الضارب فى الطبقة الاولى. وكان زلزل يضرب ، ويغني الموصلي وابن جامع عليه. والطبقة الثانية : اسحاق برصوما ، وسليم بن سلام ، وعمرو الغزال . والطبقة الثالثة : اصحاب المعازف والطنابر . وكان يطرب للغناء ، ويصل المغنين بأموال كثيرة . (٦)

---

(١) أخبار الخلفاء ، ص ١٠٩
(٢) التاج ، ص ٣٥ ــ ٣٦
(٣) ثمار القلوب ، ص ١٢١
(٤) التاج ، ص ٣٧
(٥) المصدر السابق ، ص ١٥٣
(٦) المصدر السابق ، ص ٤٠ ــ ٤٢

وكان الامين لاينقطع عن الشراب ، وقد وصفه وزيره الفضل بن الربيع فقال : قد الهاه كأسه وشغله قدحه ، فهو يجري فى لهوه والايام تسرع فى هلاكه . وكان يشرب بأقداح من بلور مرصعة بالجوهر . ووجه الى جميع البلدان فى طلب الملهين فضمهم واجرى لهم الارزاق ، وامر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلواته ولهوه وشربه ولعبه . (١)

وكان شديد الطرب الى الغناء ، واسع العطاء اذا طرب . وصفه اسحق الموصلي فقال : ماكان يبالي اين قعد ومع من قعد . وكان ، لو كان بينه وبين ندمائه مائة حجاب ، خرقها كلها والقاها عن وجهه حتى يقعد حيث قعدوا ، وكان من اعطى الخلق لذهب وفضة ، وانهبهم للأموال اذا طرب او لها. وقد رأيته امر لبعض اهل بيته فى ليلة بحمل زورق ذهبا ، وامر لي ذات ليلة بأربعين الف دينار .

وحتى فى اعسر ساعات حياته ، عندما احيط به ، كان يستمع الى الغناء ، فبينما كانت حجارة المنجنيق تصل بساطه كانت احدى الجواري تغنيه . (٢)

ويذكر الجاحظ ان المأمون كان يشرب فى اول ايامه الثلاثاء والجمعة ، ثم انه ادمن الشرب عند خروجه الى الشام في سنة خمس عشرة ومائتين الى ان توفى . (٣)

---

(١) الطبري ، ج ١٠ ، ٢١٥
(٢) التاج ، ص ٤٢ ـ ٤٣
(٣) المصدر السابق ، ص ١٥٢

وكان فى اول امره اقل ميلا للغناء من اخيه . واقام بعد قدومه من خراسان عشرين شهرا لم يسمع حرفا من الغناء. ثم سمعه من وراء حجاب متشبها بالرشيد ، ثم ظهر للندماء والمغنين (١) . وتصف كتب الادب مجالس شربه ولهوه ، وكان يحضر الجواري الحسان يسمع غناءهن ويتمتع بجمالهن . حدث اسحق قال : دعاني المأمون يوما وعنده ابراهيم بن المهدي وفى مجلسه عشرون جارية قد اجلس عشرا عن يمينه وعشرا عن يساره وهن يغنين .

وكان الواثق مدمنا الشرب يتابعه ، غير انه لم يكن يشرب فى ليلة الجمعة ولا يومها (٢) . وكان يحب الغناء ، بل كان هو نفسه مغنيا ، وكان المغنون يحيطون به لايفارقونه ، وكان يعجب باسحق الموصلي ويقول : ماغناني اسحق قط الا ظننت انه قد زيد فى ملكي ، ولا سمعته قط يغني غناء ابن سريج الا ظننت ابن سريج قد نشر . ان اسحق لنعمة من نعم الملوك التي لم يحظ احد بمثلها . ولو ان العمر والشباب والنشاط مما يشترى لاشتريتهن له بشطر ملكي (٣) .

والى جانب غنائه كان حاذقا بضرب العود ، وله اصوات عملها نحو مائة صوت (٤) .

---

(١) التاج ، ص ٤٣
(٢) المصدر السابق ، ص ١٥٣
(٣) الاغاني
(٤) أخبار الخلفاء ، ص ١٣٦

وكان المعتصم يشرب طول الجمعة ، لاينقطع الا يوم الخميس ويوم الجمعة (١) .

اما المتوكل فقد كان منهمكا فى اللذات والشراب انهماكا كبيراً (٢) . وكان بنان وزنام لايفارقانه ، هذا يضرب وذاك يزمر . وكان لايشرب الا على سماعهما (٣) . وكان اول من اظهر فى مجلسه اللعب والمضاحك والهزل (٤) .

وكنا رأينا كيف كان يحب الورد ويشرب عليه .

وكان المتوكل يدخل السماجة فى مجلسه (٥) . وهم اناس كانوا يحاكون حركات بعض الناس ويمثلونهم فى اصواتهم ويظهرون فى مظاهر مضحكة .

ولما تولى الخليفة القاهر امر بتحريم الغناء والخمر ، ولكنه كان هو يشرب المطبوخ ولا يكاد يصحو من السكر (٦) . وكان مولعا بالغناء والسماع ، فوضع من يشتري له كل حاذقة فى صنعة الغناء . « وفى بستانه الذي غرس فيه النارنج وحمل اليه الغروس من أرض الهند ، وجعل فيه انواع الاطيار » (٧) كان يشرب ويستمع الى الغناء .

---

(١) التاج ، ص ١٥٣
(٢) أخبار الخلفاء ، ص ١٣٩
(٣) ثمار القلوب ، ص ١٢٢
(٤) مروج الذهب ، ج ٣ ، ٣٦٩
(٥) الديارات ، ص ٢٦
(٦) الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ٢٠٣
(٧) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٥٢٨

وبدأ الراضي خلافته بالامتناع عن الشراب ، ثم اغــواه اصحابه ، وكان قد اعطى الله عهدا الا يشرب ، فوجد الفقهاء له رخصة ، وصار يشرب ويلهو .

وبعكسه المستكفي ، فقد كان قــد تــرك الشراب قبــل الخلافة ، فلما افضت اليه الخلافة دعا بالنبيذ وشربه . (١)

وكان المعتز يشرب كثيرا ، وكــان يشرب فى البســاتــين المــلأى بالنمــام وشقائــق النعمان ، وعلى وجــه غــلامه يونس بن بغــا (٢) .

---

(١) الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ٢٣٠

(٢) الديارات ، ص ١٠٦

سجون بغداد

تمهيد : مانحسب ان احدا من المتقدمين او المحدثين ، بحث في السجون على التفصيل. فهذا مبحث بكر طريف. سنحاول ان نقدم اليك فيه صورة واضحة تبين لــــك سبب السجن ، وتريك انواع السجون وضروب السجنى . ثم تطــوف عليهم ، فترى مايأكلون وما يلبسون ، وكيف يفرون ومتى يخرجون. فاذا فرغنا عقدنا فصلا خاصا بأدب السجون ، ثم استدركنـــا مافاتنا من الحوادث والاخبار المتعلقة بهذا الموضوع .

ويتساءل الانسان عند البحث فى هذا الموضوع عن الاسباب التي كان الناس يساقون بها الى السجن . أفكانوا ينهجون نهجا او يتبعون شريعة اذا خرج عنها واحد عوقب بالسجن ؟ الحق انه لم يكن شيء من هذا . فقد كان يكفي ان يقول الخليفة او الامير أو صاحب الشرطة « الحبس » حتى يودعوا من لفظت بسببه « المطبق » (١) فقد كان الحبس سلاحا فى يد الخلفاء

(١) الديارات ، دير مديان مثلا

والوزراء ، وقوة يكيدون بها للمتمردين والعاصين والاعدآء ، ويهددون مخالفهيم فيما يشتهون ويحبون .

١ - الوزارة سبيل السجن

من العجب ان نرى الوزارة كانت سبيلا يوصل الى السجن فى غالب الاحيان. وندرمن نجا من الوزرآء ولم يسجن .وربما قتل ولم يحبس ، وربما أصابه الامران معا. فقد سجن يعقوب بن داود وزير المهدي (١) ، وجعفر بن يحيى وزير الرشيد ، ويحيى بن خالد وابنه الفضل (٢) . وسجن محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق بعد ان صودرت امواله ونهبت دوره وضمت الى القواد ضياعه (٣ ، وسجن أبن الخصيب وزير المستعين ونكب . (٤) كما حبس ابو الصقر وزير المعتمد وقتل (٥) ولم ينج محمد بن عبيد الله من السجن ، فقد عزله المقتدر من الوزارة وحبسه مع ابنه . (٦)

وسبب ذلك ان الخليفة كان يستمع الى اقوال المنافسين ويصغي الى مقالة الحاسدين ، فيأمر بعزل وزيره وسجنه . فاذا لم يسجن جاء خلفه فسجنه انتقاما منه ، وخشية ان يشغب فيبعده عن السلطان .

---

(١) الفخري ، ص ٢٢١
(٢) العقد الفريد ، ج ٣ ، ٢٧٠
(٣) الطبري ، حوادث سنة ٢٣٣
(٤) العقد الفريد ، ج ٣ ، ٣٠٥
(٥) الاداب السلطانية ، ص ٣٠٠
(٦) المنتظم ، ج ٦ ، ١٢١

٢ ـ مناوئو الخلافة

اما مناوئو الخلافة ، والشاغبون عليها ، فكان مثواهم السجن . فقد سجن عبد الملك بن صالح ، وقد سعى به عند الرشيد بطلب الخلافة (١) . وسجن العباس بن المأمون عندما دعا الى نفسه (٢) وحبس الافشين لما شق عصا الطاعة على الخلافة ، ولم يجدوا بدا من اتهامه بالزندقة ليقتلوه . (٣)

٣ ـ الديون والمصادرات

وكانت الديون والمصادرات تودي بصاحبها الى السجن . وكثار من صودرت أموالهم واودعوا السجن ، ثم أتى بهم فنوقشوا الحساب ، وطلب منهم رد الاموال . حدث سليمان بن وهب قال : « كنت انا والعباس بن الخصيب ، مع خلق من العمال والكتاب معتقلين فى يدي محمد بن عبد الملك في آخر وزارته للواثق ، نطالب ببقايا مصادرات . فقبض علي ، فلم اشك فى انه القتل . وفتحت الابواب ... وحملني الفراشون لثقل حديدي ، وحملت الى اسحاق بن ابراهيم ، وكان صاحب الشرطة . فاذا فيه صاحب ديوان الخراج ،

---

(١) الطبري ، سنة ١٨٧

(٢) البدء والتاريخ للبلخى ، ج ٦ ، ١١٤

(٣) ابن الاثير ، ج ٦ ، ١٩٠

وصاحب ديوان الضياع ، وصاحب الزمام ، وبعض الكتاب . فطرحت فى آخر المجلس . فشتمني اسحاق بن ابراهيم أقبح شتم ، وقال : يافاعل ، وياصانع ، تعرضني لاستبطآء امير المؤمنين ؟ اين الاموال التي جمعتها ، وحبست بسببها ؟

فاحتججت بنكبة ابن الزيات ، فقال لي صاحب ديوان الضياع : اخذت من الناس اضعاف ماأديت ، وعادت يدك الى كتبة أيتاخ ، فأخذت ضياع السلطان واقطعتها لنفسك وحزتها سرقة اليك . وأنت تستغلها الفي الف درهم ،وتتزيا بزي الوزرآء ! (١)

وقد ذكر التنوخي كثيرا من احاديث هؤلاء المسجونين لديون ومصادرات فليرجع اليه .

٤ ـ الزندقة ، الشعوبية ، القرامطة ، الملاحدة ، الرافضة

وكان الزنادقة يقتلون طورا ويسجنون طورا . وربما اتخذوا الزندقة سبيلا للقتل أو السجن . وكان الزنادقة يودعون سجنا خاصا فى المطبق . ذكر أبو نواس قال : كنت اتوهم حماد عجرد انما يرمي بالزندقة لمجونه فى شعره ، حتى حبست فى حبس الزنادقة ، فاذا حماد عجرد امام من أئمتهم، واذا له شعر مزاوج بيتين بيتين يقرأون به فى صلاتهم . (٢)

---

(١) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ٤٣

(٢) الاغاني ، ج ١٣ ، ٧١

وقد سجن أبو نواس متهما بالزندقة ، وكان قد عـــرض بالامين (صاحب التاج) . واعتقد ان تعريضه به هو سبـب سجنه ، وانهم جعلوا الزندقة سببا . فقد قال :

وقــد زادني تيها على النــاس انني
اراني اغناهم وان كنت ذا فقــرا

فلو لم انل فخرا لكــانت صيانتي
فمي عن جميع الناس حسبي من فخر

فلا يطمعن في ذاك مني طــامـــع
ولا صاحب التاج المحجـب بالقصر

فقال له الامين وقد اتى به « ابلغ بك الامر ان تعـرض بي في شعرك يا بن اللخناء . . . ؟ »

ثم اتخذوا عليه حجة انه زنديق قد شرب ماء المطر مـــع الخمر وقال : هاانــذا اشرب الملائكة ، فــان مع كل قطــرة ملكـــا ! (١)

ومن الطريف ان نتابع القصة . فقد ذكروا ان خال الفضل بن الربيع كان يتعهد المحبوسين ويسأل عنهم . وكانت فيه غفلة . فدخل على ابي نواس فقال : ماجرمك حتى حبســت في حبس الزنادقة ؟ أزنديق انت ؟

---

(١) الطبري ، سنة ١٩٨ ــ الملح والنوادر ، ص ١٣٥

فقال : معاذ الله !

قال : أتعبد الكبش ؟

قال : ولكني آكله بصوفه !

قال : افتعبد الديك ؟

قال : لا والله ، بل آكله . . . ولقد ذبحت ألف ديك ، لان ديكا نقرني مرة ، فحلفت الا أجد ديكا الا ذبحته .

قال : فلأي شيء حبست ؟

قال : لأني أشرب شراب أهل الجنة ، وانام خلف الناس .
فقال : وانا أفعل ذلك !

فخرج خال الفضل الى الفضل وقال له : ماتحسنون جوار الله ! تحبسون من لاذنب له ؟ سألت رجلا فى الحبس عن خبره فقال كذا وكذا . وعرفه بما جرى بينهما ، فضحك ودخل على الامين فأخبره الخبر ، فأمر بتخليته ! (١)

وكان الشعوبيون يسجنون لتهجمهم على العرب ، وقد سجن الرشيد أبا نواس لقصيدة قالها وهجا العرب بها . (٢)

وحبس فيما بعد ، محمد بن هارون الوراق الملحد ، ومات فى السجن . وطلب ابن الراوندي الملحد ليسجن ففر . (٣)

---

(١) الملح والنوادر ، ص ١٣٤ ــ ١٣٥
(٢) حديث الاربعاء ، ص ١١٣
(٣) المنتظم ، ج ٦ ، ١٠٢

وسجن المقتدر رجالا كثارا من الدعاة الى القرامطة والذاهبين مذهبهم . سجن جماعة من الرافضة ، كانوا يجتمعون في مسجد لسب الصحابة والخروج عن الطاعة . (١)

٥ ـ مخالفة رأي الخليفة

وكان مخالف راي الخليفة او الوزير معرضا للسجن . وقد سجن ألوف ، وقتل الوف فى محنة خلق القرآن . وكان أحمد بن حنبل ، الذي لم يقل بخلق القرآن ، أحد من سجنوا .(٢)

٦ ـ ادعاء النبوة

وكان المتنبئون يسجنون ان لم يقتلوا . وقد كثر التنبؤ فى عصر بني العباس ، وكان لاصحابه مع الخلفاء نوادر واحاديث . (٣)

٧ ـ المجون ، الفسق ، الشراب

وكان المستهترون والفساق ، يسجنون حتى ينالهم العفو . ذكر ابن المعتز أن اسحق بن ابراهيم لما بلغه مافيه أبو العبر من الخلاعة والمجانة امر بحبسه . فكتب اليه أبو العبر رقعة

---

(١) المنتظم ، ج ٦ ، ٣١٧

(٢) البدء والتاريخ ، ج ٦ ، ١٢١

(٣) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٣٣١

يذكر فيها انه تائب ، ويسأله ان يخرجه من الحبس حتى يعلمه رقية العقرب. فأحضره وقال : اذا رايت العقرب فتناول النعل واضربها ضربة شديدة فانها لاتعود تتحرك .

فضحك وقال: والله انه لايفلح ابدا . (١)

وامر المهدي ابراهيم الموصلي الا يشرب ، ولا يتبذل ولا يغني . فغنى ابراهيم عند اخوانه وتبذل وشرب ، فضرب ثلاثماية سوط ، وقيده وحبسه . (٢)

ووجد العسس ابا دلامة سكران فى بعض الليالي . فقبضوا عليه ، وأخذوه فخرقوا ثيابه وساجه وحبسوه . فلما أفاق قال أبياتا وأرسلها الى المنصور منها :

امير المؤمنين فدتك نفسي علام حبستني وخرقت ساجي
أمن صهباء صافية المزاج كأن شعاعها ضوء السراج
وقد طبخت بنار الله حتى لقد صارت من النطف النضاج
اقاد الى السجون بغير جرم كأني بعض عمال الرخاج (٣)

٨ ــ العيارون ، اللصوص ، المجرمون

وكان العيارون واللصوص وقطاع الطريق يودعون السجن . (٤) وقد سجن المأمون نفرا منهم كبيرا ، وقتل آخرين . (٥) ذكر ابن المعتز ان اسحق بن خلف ، وكان

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز (اقبال) ، ص ، ١٦٢
(٢) الاغاني ، ج ٥ ، ٥
(٣) ثمار القلوب ، ص ٢
(٤) الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ١٦٥
(٥) تاريخ بغداد لطيفور ، ص ١٧٨

احد الشطار الذين يحملون السكاكين ، قتل غلاما فحبس بذلك فما فارق الحبس حتى مات . (١) وهذا مايسمى بالسجن المؤبد فى ايامنا . وذكر ابن الجوزي ان المعتمد حبس ثلاثة من الجند لأنهم سرقوا (٢) . وانه وجدت امراة قد سرقت صبيا فى خلافة المطيع فشوته وهو حي ، واكلت بعضه ، واقرت بذلك . وذكرت ان شدة الجوع حملتها على ذلك . فحبست مدة ثم ضربت عنقها . (٣)

وكان الاطباء الذين يغلطون فيودون بحياة الناس يحبسون. فقد حبس الطبيب النصراني خصيب لانه سقى محمد بن أبي العباس السفاح شربة دوآء فمرض منها ومات ، وبقي في حبسه حتى مات . (٤)

٩ ـ الشعر ، الضحك ، الغناء

وقد يسجن الانسان لأسباب حقيرة لاشأن لها . وتحدثنا كتب الادب ان أبا العتاهية سجن مرة لانه قال :

الا ان ظبيا الخليفة صادني
ومالي عن ظبي الخليفة من صبر (٥)

---

(١) طبقات ابن المعتز ، ص ١٣٨
(٢) المنتظم ، ج ٥ ، ١٢٤
(٣) المنتظم ، ج ٦ ، ٣١٧
(٤) عيون الانباء ، ص ١٤٨
(٥) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٢٧٦

وسجن مرة ثانية لان الرشيد أمره ان يتغزل وهو معه في الرقة فأبى . (١) وكان معه ابراهيم الموصلي ، فأمره ان يغني ، وقد مات الهادي ، فأبى الموصلي ايضا . فحبسه وقال : لايخرجان حتى يغني هذا ويشعر ذاك . (٢)

ويذكر الشابشتي صاحب كتاب الديارات خبرا يدعو الى العجب والاعجاب معا قال : خرج اسحاق بن ابراهيم من عند المأمون ، حتى اذا صار الى الدهليز الثاني في القصر وقف ، ووقف القواد والناس لوقوفه . ثم قال : اين خليفة علي بن صالح ؟

وكان على ذلك الوقت صاحب امر الدار والمرسوم بالحجبة. فأتى خليفته فضربه مائة مقرعة . ثم قال : الحبس . ثم قال : هاتوا خليفة صاحب البريد ، فأتى به ، فضربه مائة مقرعة . ثم قال : الحبس . ثم دعا بعلي بن صالح ، وبصاحب البريد ، وقال لهما : تقلدان خلافتكما في دار الخلافة من يضيع الامور ويهملها .. كنتما بهذا الادب احق من هذين ! فقالا : وما كان من امرهما الذي انكرته ايها الامير ؟ قال : صاحب بريد يقعد في دار الخلافة فيضحك ويقهقه ، وصاحب الدار جالس لاينكر ... ! » (٣)

وفي جميع هذه الاسباب ذكرت كتب الادب اخبارا اخرى ،

---

(١) و (٢) الاغاني ، ج ٥ ، ٤ ــ ٥

(٣) الديارات (دير مديان)

أخذنا منها مايقوم به الدليل على ماذهبنا اليه ، ولم نعمد الى التطويـــل .

***

انـواع السجون

نستدل مما اطلعنا عليه من النصوص انه كان فى بغـــداد انواع منوعة من السجون . فهناك المطبق وهو حبس مظلـم كبير ، كان المنصور قد بناه بين طريق البصرة وطريق بـاب الكوفة . وباسمه سمي الشارع الذي يقع هذا السجن فيه . وكان متين البناء قوي الاساس . وبقي أهم سجون بغـداد حتى عهد المتوكـل . » (١)

وكان فيها سجن آخر عند باب الشام ، اذا ذكروه قالوا : السجن الذي عند باب الشام ، وكان يهاجم دائما ، وكان عليه عثمان بن نهيك ، وقتل في فتنة الراوندية . (٢)

فلما كان زمن المعتصم امر ان يبنى حبس فى بستان موسى كان المقيم به مسرور الخادم مولى الرشيد . يقول التنوخي : « وكان هذا البناء يرى من دجلة اذا ركبها المرء . وكان كالبئر العظيمة ، قد حفرت الى المـاء أو قريب منه ، وفيها بناء على هيئة المنارة مجوف من باطنه ، وله من داخله مدرج ، وقـد

---

(١) بغداد فى عهد الخلافة العباسـية ، ص ٣٤

(٢) تاريخ ابن خلدون ، ج ٣ ، ١٨٦

جعل فى مواضع من التدريج مستراحات ، وفى كل مستراح شبيه بالبيت ، يجلس فيه رجل واحد ، كأنه على مقداره ، يكون فيه مكبوبا على وجهه ، وليس يمكنه ان يجلس ولا يمد رجله . (١)

ثم بنوا سجنا آخر سموه السجن الجديد . وكان موضعه اقطاعا لعبد الله بن مالك . (٢) وبقي حتى جاء معز الدولة فهدم سوره سنة ٣٥٠ للهجرة ونقل آجره الى داره فبنى به (٣) ، وفى سنة ٣٥٥ هـ كتب الى طاهر بن موسى ان يبني موضع الحبس الجديد مارستانا . (٤)

ولا نستطيع وصف ماكان فى هذه السجون على التفصيل ، وانما نعلم انها كانت ذات اقسام . فحبس للزنادقة ، وحبس للعوام ، وحبس للنساء .

وكان فى المطبق الغرف الواسعات والضيقة . وكان فيه الآبار يسجن فيها . حدث يعقوب بن داود وزير المهدي قال : حبسني المهدي وذلك فى المطبق . فدليت بحبل فى بئر مظلمة . لاأرى فيها الضوء . (٥) قد بنيت عليها قبة ، فكنت فيها خمس عشرة سنة . (٦)

---

(١) الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ٢٧٦
(٢) تاريخ بغداد للخطيب ، ج ١ ، ٨٧
(٣) المنتظم ، ج ٧ ، ٢
(٤) المصدر السابق ، ج ٨ ، ٣٣
(٥) الفخري ، ص ٢٢١
(٦) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ١٤١

وربما سجنوا فى اماكن ومحال أخرى . فقد سجن سليمان بن وهب فى كنيف قال : فأخذني اسحق (بن ابراهيم ،صاحب الشرطة) وحبسني فى كنيف ، واغلق علي خمسة ابـــواب . فكنت لاعرف الليل من النهار . (١) وسجن المحسن بن أبي الحسن بن الفرات فى كنيف داخل الحجرة ، ودلوا فى بئـــر راسه بعد أن قيد . والبس جبة صوف غمست بالنفط .(٢)

وربما سجنوا فى الحجـر الضيقة المظلمة . حـدث ابـو الحسن بن ابي الطاهر قال : قبض محمد بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب فى وزارته للقاهر بالله على ابي وعلي معا ، فحبسنا فى حجـرة مـن دار ضيقـة ، واجلسنا علـى التـــراب . (٣)

وكان الحبس الذي سجـن فيه المهـدي ابراهيم الموصلي مكانا شبيها بالقبر مملوءا بالافاعي والبق . (٤) ولمـا سير المنصور جماعة من ابناء علي الى الكوفـة حبسوا فى سرداب تحت الارض ، لايفرقون فيـه بـين ضياء النهار او ســواد الليـــل . (٥)

وربما سجنوا فى دار منفردة ، كمـا فعلوا بأبي العتاهية ــلما

---

(١) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ٣٤
(٢) الصابي ، ص ٢٤٣
(٣) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ٥٢
(٤) الاغاني ، ج ٥ ، ص ٥
(٥) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٢٠٠

طلب اليه الرشيد ان يتغزل فأبى ، ومنعوا دخول من يريد اليه .

ويذكر ابن الجوزي ان القاهر بنى المطامير ليحبس الجند فيها : (١)

***

واناس آخرون كانوا لايسجنون فى هذه المحال . فقد كانوا يحبسون من يخافون عليه او كان له شأن عند الوزراء كما سجن عبد الملك بن صالح بعهد الفضل بن الربيع لما غضب الرشيد عليه . (٢) وكما سجن ابراهيم بن المهدي بعد القبض عليه وقبل العفو عنه عند أحمد بن ابي خالد .(٣) وربما اودعوا عند من يثق الخليفة به ،كما فعل الرشيدعندما سجن موسى بن جعفر بدار السندي بن تاهك . (٤)

وكانوا يتخذون قصور الخلفاء سجونا فى بعض الاحايين . فقد حبس المستعين بن المعتصم ، المعتز والمؤيد ابني المتوكل فى حجرة من حجرات الجوسق الكبير . (٥) ويقول لسترانج ان الخلفاء « اتخذوا دار الشجرة التي شيدها المقتدر حبسا رسميا ، وضعوا فيه أقرب أقربائهم احتياطا من اعمالهم .

---

(١) المنتظم ، ج ٦ ، ٢٦٤
(٢) الطبري ، سنة ١٨٧
(٣) تاريخ بغداد لطيفور ، ص ١٨٥
(٤) الفخري ، ص ٢٣٣
(٥) الطبري ، سنة ٢٤٨

وجعلوا فى خدمتهم عددا من الغلمان والخدم ، وجهزوه تجهيزا تاما بوسائل الرفاهية والنعيم ، ومنعوهم من تخطي اسواره . » (١)

ويذكر ابن الجوزي آن القاهر حبس في دار السلطان مدة احدى عشرة سنة من (٣٢١ ــ ٣٣٣) ، ثم اخرج الى دارابن طاهر ، فكان يحبس تارة ويخلى تارة . (٢)

وفي القرن الرابع اخذوا يسجنون عند القهرمانات . فقد سجن ابن الفرات عند زيدان القهرامانة . (٣) وسلم اليها ايضا الامير الحسين بن حمدان ، والوزير علي بن عيسى .(٤)

***

في السجن :

لانعلم الكثير من أحوال السجناء داخل السجن فى بدءالعصر العباسي . على اننا نورد لك ماكتبه ابو يوسف للرشيد عن المساجين ، لنصور لك ماطلب ان يكونوا عليه . فقد امر ابو يوسف ان يؤمر بالتقدير لهم مايقوتهم فى طعامهم وادمهم ، وان يصير ذلك دراهم تجري عليهم ، وتدفع في كل شهر اليهم : « فانك ان اجريت عليهم الخبز ذهب به ولاة السجن والقوام

---

(١) بغداد فى عهد الخلافة ، ص ٢٢٠
(٢) المنتظم ، ج ٦ ، ٢٦٥
(٣) الصابي ، ص ١٠٥
(٤) الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ٢٤٣

والجلاوزة . وول ذلك رجلا من اهل الخير والصلاح يثبت اسماء من فى السجن ممن تجري عليهم الصدقة ، وتكون الأسماء عنده ، ويدفع ذلك اليهم شهرا بشهر . يقعد ويدعو باسم رجل رجل ، ويكون الاجرآء عشرة دراهم فى الشهر لكل واحد ، وليس كل من فى السجن يحتاج ان يجري عليه » ثم طلب ان تكون كسوتهم فى الشتاء قميصا وكساء وفى الصيف قميصا وازارا . وان يجري على النساء مثل ذلك . وكسوتهن فى الشتاء قميص ومقنعة وكساء ، وفى الصيف قميص وازار ومقنعة .

ويمعن ابو يوسف فى تصوير هؤلاء العامة من السجناء فيقول : واغنهم عن الخروج فى السلاسل يتصدق عليهم الناس ، فان هذا عظيم ان يكون قوم من المسلمين قد اخطأوا واذنبوا وقضى الله عليهم ماهم فيه فحبسوا ، يخرجون في السلاسل يتصدقون . وما اظن اهل الشرك يفعلون هذا بأسارى المسلمين الذين فى ايديهم فكيف ينبغي ان يفعل هذا بأهل الاسلام ؟ وانما صاروا الى الخروج فى السلاسل يتصدقون لما هم فيه من جهد الجوع .

ولقد بلغني واخبرني الثقات انه ربما مات منهم الميت الغريب فيمكث فى السجن اليوم واليومين ، حتى يستأمر الوالي فى دفنه ، وحتى يجمع اهل السجن من عندهم

مايتصدقون ، ويكترون من يحمله الى المقابر فيدفن بلا غسل ولا كفن ولا صلاة » . (١)

كان المسجون اذا دخل السجن كتبت قصته فى سجـــل خاص . ومن المؤكد ان هذا السجل كان يحتوي المدة التـــي ينبغي ان يقضيها . ثم كانوا ينزعون ثيابه فيلبسونه غيرها ، ثم يقيد ، ويقدم له طعام خاص .

حدث ابن وهب قال : اخذني اسحق (بن ابراهيم)فقيدني بقيد ثقيل ، والبسني جبة صوف ، فأقمت كذلك نحو عشرين يوما لايفتح علي الباب الا مرة واحدة فى كل يوم وليلة ،ويدفع لي فيها خبز شعير وماء حار » . (٢)

وحدث سليمان بن وهب قال : « كنت فى يدي محمـــد بن عبد الملك يطالبني وانا منكوب ، وكان يحضرني كل يـــوم وانا فى قيودي وعلي جبة صوف » . (٣)

وذكر يعقوب بن داود قال : « حبسني المهدي ... فـــي بئر .. وكان يدلي الي فى كل يوم رغيف وكوز ماء » . (٤)

وقيد جعفر بن يحيى فى حبسه بقيد حمار قبل ان يقتـــل ثم ضربت عنقه . (٥)

---

(١) الخراج ، ص ٨٨
(٢) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ٤٣
(٣) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ٩٥
(٤) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ١٤١
(٥) الطبري ، سنة ١٨٧

وسأل الرشيد جعفر بن يحيى يوما مافعل بيحيى بن عبد الله ؟ قال : بحاله ياامير المؤمنين : فى الحبس الضيق والاكبال . (١)

وقيد ايتاخ فى سجنه وصير فى عنقه ثمانون رطلا وقيد ثقيل (٢) وكانت وظيفته رغيفا وكوزا من ماء .

ولما حبس اسحق بن ابراهيم عمر بن فرج البسه جبة صوف وقيده بالاكبال . (٣)

وحبس بختشيوع المتطبب فى المطبق فضرب مائة وخمسين مقرعة واثقل بالحديد . (٤)

وكانت جبة الصوف تدهن احايين كثيرة بالنفط او بماء الاكارع . (٥) كما فعل بجبة ابن الفرات وغيره . (٦) اما القيد فربما بقيت آثاره بعد فكه ، وهذا ما حدث لأبي العباس احمد بن الفرات ، فقد علق بحبال فى يديه بقيت آثارها فيها مدة حياته . (٧) وربما اهمل المسجونون فلم يكسوا ولم يطعموا كما فعل الرشيد بالبرامكة . (٨)

---

(١) الطبري ، سنة ١٨٧
(٢) الطبري ، سنة ٢٢٥
(٣) الطبري ، سنة ٢٣٣
(٤) الطبري ، سنة ٢٤٥
(٥) الصابي ، ص ٢٩٨ — ٢٩٩
(٦) الصابي ، ص ١٠٤
(٧) الصابي ، ص ٨ و ٩
(٨) طبقات الشعراء لابن المعتز ، ص ١٢١

من هذا كله ترى ان لباس السجناء كان جبة من صوف ، وان طعامهم على الاغلب رغيف ، وشرابهم كوز ماء ، وقيودهم السلاسل والاكبال .

وقد يمنع المسجونون من مقابلة احد جاء لزيارتهم ، وقد يقابلونه بالرشي . حدث محمد بن صالح العلوي قال : « جاءني السجان يوما وقال ان بالباب امرأتين تزعمان انهما من اهلك ، وقد حظر علي ان يدخل عليك احد . الا انهما اعطتاني دملج ذهب وجعلتاه لي ان اوصلتهما اليك ، وقد اذنت لهما ، وهما فى الدهليز ، فاخرج اليهما . » (١)

ويقول ابن المعتز « ان البرامكة كان يزورهم فى محنتهم من كان يألفهم ايام نعمتهم حتى ان الرشيد كان يقول لسعيد بن وهب « آنس القوم بحديثك ، واكثر من زيارتهم . » (٢)

***

وهنا قد نتساءل : اكان السجناء يتعلمون فى السجن صناعة ما او علما ؟ يذهب آدم متز (٣) الى ان المسجونين كانوا يشتغلون بنسج التكك ، مستندا الى بيت من الشعر قاله ابن المعتز ، لم نجده فى ديوانه ، وهو :

---

(١) الاغاني ، ج ٩ ، ١٣١ (ترجمة محمد بن صالح)
(٢) طبقات ابن المعتز ، ص ١٢١ ـ ١٢٢
(٣) الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ١٦٥

تعلمت في السجن نسج التكك
وكنت امرءا قبل حبسي ملك

على اننا لانستطيع الجزم بذلك . فابن المعتز سجن في مكان خاص منفرد، ولم تكن مدة سجنه طويلة حتى يتعلم . على انه اذا نفينا ذلك عن ابن المعتز فقد يكون للسجناء ، في السجون العامة الاخرى .

ويحدثنا ابراهيم الموصلي انه حبس ايام المهدي وضرب قال : فحذقت الكتابة والقراءة فى الحبس » (١) وليس في هذا مايدل على التعميم .

***

وما كادت المائة الثانية من الهجرة تمضي ، حتى بدأت السجون تنال عناية من الخلفاء ، ولا سيما المعتضد ، فقد اوقف لها الاموال الكبار لنفقات المحبوسين وثمن اقواتهم ومائهم وسائر مؤنهم . وقد جعل فى ميزانيته الف وخمسماية دينار فى الشهر لذلك . (٢) ويحدثنا القفطي انه عين لمن في السجون اطباء أفردوا لذلك ، فكانوا يدخلون اليهم ويحملون الادوية والاشربة ، ويطوفون على سائر الحبوس ويعالجون فيها المرضى . (٣) كما جعل للمحبسين ديوانا خاصا تكتب فيه قصصهم فى دفاتر خاصة يرجعون اليها دائما . (٤)

---

(١) الاغاني ، ج ٥ ، ٤
(٢) الصابي ، ص ٢١
(٣) القفطي ، ص ٢٢١
(٤) الطبري ، سنة ٢٤٩

التعـذيب والذبـح :

وكانوا يلجأون فى بعض الأحايين الى تعذيب السجين تعذيبا مؤلمـا . وقد يخص بالعذاب الـوزراء والعمال . وسنعرض عليك الوانا مختلفاتمن التضييق والتعذيب ، فقد كان سليمان ابن وهبفىاول حبسه بالبئر « يأنس بالخنافس وبنات وردان ويتمنى الموت لشدة ماهو فيه . » (١)

وحبس محمد بن القاسم ... بن علي بن ابي طالب فــي الحبس الذي شيد فى بستان موسى . « فلما ادخل اليه اكب على وجهه فى اسفل بيت منه ، فلما استقر بــه اصابه مـــن الجهد لضيقه وظلمته ، ومن البرد لندى المـوضع ورطوبته ، ماكــاد يتلفــه . » (٢)

اما الضرب والتعذيب فكثير : فقد ضرب بختيشوع المتطبب مائة وخمسون مقرعة . (٣) وضرب يحيى بن خالد والفضل بن يحيى . (٤) وسوهر محمد بن عبد الملك ومنع من النوم، وكان ينخس بمسلة « تؤلمه وتدمي جسده » (٥) . ولما سجن المعتز بعد خلعه دفع الى من يعذبه ومنع من الطعام والشراب ثلاثة ايام ، فطلب حسوة من ماء البئر فمنعوه منها ، ثــــم

---

(١) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ٤٢
(٢) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ١١٩
(٣) الطبري ، سنة ٢٤٥
(٤) المحاسن والمساوىء للبيهقي
(٥) الطبري ، سنة ٢٣٣

جصصوا سردابا بالجص السخين وادخلوه فيه واطبقوا عليه فأصبح ميتا . (١)

ومن باب التعذيب ذبح المسجونين . اورد التنوخي قصة نوردها هنا قال : حدث القاضي ابو عمر قال : لما جرى من امر عبد الله بن المعتز ماجرى حبست وما فى لحيتي شعرة بيضاء ، وحبس معي ابو المثنى القاضي ، ومحمد بن داود بن الجراح فى دار واحدة ، وكنت اذا جن الليل حدثت ابا المثنى تارة ، ومحمد بن داود تارة ، وحدثاني من وراء الأبواب ، ويوصي كل واحدمنا الى صاحبه ،ونتوقع القتل ساعة بساعة. فلما كان ذات ليلة ، وقد اغلقت الابواب ونام الموكلون ونحن نتحدث من بيوتنا اذ احسسنا بصوت الاقفال تفتح . فارتعنا، ورجع كل منا الى صدر بيته . فما شعرت الا وقد فتح البواب على محمد بن داود ، وأخرج ، واضجع على المذبح . فقال : ياقوم ذبحا كما تذبح الشاة ؟ اين المصادرات ؟ اين انتم من اموالي افتدي بها نفسي ؟ فما التفتوا الى كلامه ، وذبحوه وانا اراه من شق الباب ، وقد اضاء السجن من كثرة الشموع ، وصار كأنه نهار . واحتزوا راسه فأخرجوه معهم ، وجردوا جثته ، وطرحت فى بئر الدار ، وغلقت الابواب . قال : فأيقنت بالقتل ، وأقبلت على الصلاة والدعاء والبكاء ، فما مضت الا ساعة واحدة حتى احسست بالاقفال تفتح ،

---

(١) الطبري ، سنة ٢٥٥

فعاودني الجزع ، واذا هم جاؤا الى بيت ابي المثنى ففتحوه واخرجوه وقالوا له : يقول لك امير المؤمنين ، ياعدو الله ، يافاسق ، بم استحللت نكث بيعتي وخلع طاعتي ؟ فقال : لاني علمت انه لايصلح للامامة ! فقالوا : ان امير المؤمنين قد امرنا باستتابتك من هذا الكفر ، فان تبت رددناك الى محبسك ،والا قتلناك . فقال اعوذ بالله من الكفر ، ماأتيت مايوجب الكفر . فلما ايسوا منه مضى بعضهم وعاد ، فاضجعوه وذبحوه وانا اراه ، وحملوا راسه وطرحوا جثته فى البئر . فذهب على امري ، واقبلت على الدعاء والبكاء والتضرع الى الله . فلما كان وجه السحر سمعت صوت الاقفال ، فقلت : لم يبق غيري ، وانا مقتول . فاستسلمت ، وفتحوا الابواب فأقاموني الى الصحن ، وقالوا : يقول لك امير المؤمنين : يافاعل وياصانع ماحملك على خلع بيعتي ؟ قلت : الخطأ وشقوة الجد ، وانا تائب الى الله عز وجل من هذا الذنب . فجاؤا الى بخفي وطيلساني وعمامتي ، فلبست ذلك واخرجت ، فجيىء بي الى الدار التي كانت برسم ابن الفرات فى دار الخليفة . فلما رآني اقبل يخاطبني بعظم جنايتي وخطائي ، وانا اقر بذلك ،واستقيل واتنصل ، فقال : وهب لي امير المؤمنين دمك ، وابتعت منه جرمك بمائة الف دينار ، الزمتك اياها . » (١)

ولم يكن التعذيب على ضروبه مقتصرا على خواص

---

(١) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ١٠٨

المسجونين ، بل كان يصيب من كان فى السجون العامة . فقد رؤي في ايام المقتدر رجل فى المطبق مغلولا ، على ظهره لبنة حديد فيها ستون رطلا .

***

على ان هناك صلة بين التعذيب عند العباسيين والتعذيب عند اهل اوروبة فى القرون الوسطى ، وان كان التعذيب في اوروبة يفوق تعذيب العباسيين شدة وفظاظة . فقد بلغوا فيه مبلغا من القسوة لايجاريهم فيه احد . وقد ذهبوا في الظلم والارهاق مذاهب شتى ، وتنافسوا فى ابتكار اشد وسائل الارهاب فى السجن فظاعة . من ذلك ان بعض السجون المظلمة التي كان يزج فيها السجناء كانت اشبه بمغاور تحت الارض ، يوصل اليها بسلاليم ، لاينفذ اليها النور . وكانت السلاليم مؤلفة من عدة درجات ، يختلف بعضها عن بعض فى حجمها وارتفاعها . والغرض من جعلها كذلك تضليل النازل حتى تزل قدمه فيهوي الى قاع السجن الرهيب .

وكان فى نورمبرع سجن يتناقل الناس اشد الاخبار هولا عما كان المسجونون يسامون فيه من البلاء ، وكان يعرف بالسجن الاحمر . كانوا يقلعون فيه اظافير السجناء ، ويفقأون عيونهم ، ويضغطون على عظامهم بآلات حديدية فتسحق وتهرس ، او يدفعونهم ليناموا فى اسرة ذات مسامير محماة تنخزهم نخزا مؤلما فتسيل دماؤهم . وكان فى السجن نفسه

كساء حديدي يدخل فيه المسجون فيطبق عليه ، وكان له من داخله مسامير حادة تنفذ فى الجسم فيقاسي الرجل انواعا من الآلام حتى يموت .

وكان فى مدينة لاهاي سجن يسمى « جيفانجن بورث » كان المسجونون فيه يصابون بالجنون قبل ان يموتوا لشدة ماكانوا يعانون من العذاب ، كالكي بالحديد وقطع الاعناق بحز الرؤوس حزا بطيئا .

وفى مدينة هاليفكس كانوا يأتون بالمسجون وهو موثق اليدين والقدمين فتوضع عنقه تحت آلة قاطعة مدلاة مربوطة الى السقف بحبل اذا انقطع سقطت الآلة الحادة على عنق الرجل فيموت . (١)

وفى سجن قمة سان ميشيل فى فرنسة كان السجناء يدفعون الى كهوف فى بطن الارض فيها الافاعي وضروب الحشرات ، وقد ملئت بالماء الراكد القذر فيموت المسجون موتا بطيئا ، وربما ضرب او عذب حتى يموت . (٢)

اللهو :

على اننا نرى من تمام البحث ، وقد اوردنا طرفا من

---

(١) انظر مقالة عن السجون فى العصور الوسطى فى مجلة الهلال ، ج ٩ للسنة ٣٩ ، ص ١٤٦٨ – ١٤٧٢

(٢) انظر كتاب (فونك برنتانو : سجون الماضي) وخاصة وصف سجن شاتله .

الوان التعذيب ان نسوق طرفا من اللهو الذي كان يتمتع به بعض المسجونين فى بعض السجون . حدث ابو علي بن مقلة قال :

« من ظريف ما اتفق لي فى نكبتي التي ادنتني من الوزارة اني اصبحت وانا محبوس مقيد فى حجرة من دار ياقوت امير فارس . وقد لحقني من الاياس من الفرج وضيق الصدر ما اقنطني وكاد يغلب على عقلي . وكنت انا وفلان محبوسين مقيدين فى بيت واحد ، الا انا على سبيل ترفيه واكرام . فدخل علينا كاتب لياقوت كان كثيرا ما يجيئنا برسالة ، فقال : الامير يقرا عليكما السلام ، ويتعرف اخباركما ويعرض عليكما قضاء اي حاجة لكما . فقلت : تقرا على الامير السلام وتقول له ضاق والله صدري واشتهيت ان اشرب على غناء طيب (قال) والمحبوس معي يخاصمني ويقول : ياهذا ، والله مافي قلوبنا فضل لهذا . ثم مضى وعاد يقول : الامير يقول حبا وكرامة ، اي وقت شئت .

قلت : الساعة .

فلم تمض ساعة حتى جاؤا بالطعام والمشام والفاكهة والنبيذ . وصفف المجلس . فجلست ، والمحبوس معي ، مقيدا ، وقلت : تعال حتى نشرب ونتفاءل بأول صوت يغني به لنا فى هذه الساعة . وجاءت

المغنية وغنتنا غناء طيبا ، فقطعنا يومنا بين لهو وشراب وغناء . » (١)

وحدث احمد بن المدبر انه «لما امر محمد بن عبد الملك بحبسي ادخلت محبسا فيه احمد بن اسرائيل وسليمان بن وهب فجعلت فى بيت ثالث . وكنا نتحدث ونأكل جميعا ، وربما ادخل الينا النبيذ فنشرب ونلهو . » (٢)

مدة السجن :

لم يكن للسجن مدة خاصة ، ولم يكن لكل جرم عقوبة ذات اجل معروف . فقد حبس اسحق بن خلف القاتل حتى مات (٣) . وهذا مايشبه السجن طوال الحياة فى ايامنا . وسجن يعقوب بن داوود خمسة عشر عاما . (٤) وحبس رجل سرق كساء ثمنه درهمان سنتين . (٥) وسجن ابو نواس ثلاثة اشهر . (٦) وابو دلامة ليلة واحدة . (٧) وحبس الرشيد زلزلا المغني لوجد عليه عشر سنين . (٨) فى حين سجن المتقي فى جزيرة بمقابلة جزيرة السندية خمسا وعشرين سنة . (٩) وهذا يشبه السجن مع النفي فى هذه الايام .

---

(١) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ١٤٨
(٢ الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ١٤٩
(٣) طبقات ابن المعتز ، ص ١٢٨
(٤) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ١٢٨
(٥) تاريخ طيفور ، ص ٢٥
(٦) الملح والنوادر ، ص ١٣٤
(٧) ثمار القلوب ، ص ٢٠
(٨) الاغاني ، ج ٥ ، ٢٢
(٩) المنتظم ، ج ٦ ، ٢٦٥

فأنت ترى ان ليس للسجن اجل محدود ، وانما كـــان الخروج منه محصورا فى سبل خمسة سنذكرها فيما يلي :

الخروج من السجن :

اما السبل التي يخرج بها المسجونون فهي :

الفرار ، كسر السجن ، مـوت الخليفة ، العفـو ، حيلـة يحتال بها .

اما الفرار فحوادثه كثيرة ، نسوق اليك مثالا : حدث محمد بن القاسم ، وكان المتوكل قد قبض عليه وسجنه فى سجـن منفرد قـــال :

كنت ادبر امري فى التخلص منذ حبست . وكان فى البيت الذي حبست فيه خلاء الى الغرفة التي فوقه وخلاء فىالغرفة الى سطحها ، وكنت قد ادخلت معي منذ حبست لبدا فكـان وطائي وفراشي.وكنت ارى فى (برغش) ، وهي قرية من قرى خراسان ،حبالا تعمل فيها من لبود كما يفعل بالسيور ،فتجيء احكم شيء . فسولت نفسي ان اعمل من اللبد الـذي تحتي حبلا . وكان على باب البيت قوم وكلوا بي يحفظونني لايدخل علي منهم احد ، وانما يكلمونني من خلـف الباب ويناولونني من تحته ما اتقوته ، فقلت لهم : ان اظفاري قد طالت جدا وقد احتجت الى مقراض . فجاءني رجل بمقراض . وقلت لهم : ان فى هذا البيت فيرانا يؤذونني اذا قربوا مني ، فاقطعوا لي

جريدة من النخل تكون عندي اطردهم بها . فقطعوا لي جريدة من بعض نخل البستان ، ورموا بها الي . فأخذت أضرب بها في البيت واسمعهم صوتها اياما . ثم قشرت الخوص عنها ، وقطعتها على مقدار ما علمت انها تعترض في ذلك الخلاء اذا رميت بها . فضممت كل ماقطعته منها بعضه الى بعض ، وقطعت اللبد ، وضفرت منه حبلا على ماكنت ارى يعمل بفرش ، ثم شددت ماقطعته من الجريدة في راس الحبل ، ثم رميت به في الكوة وعالجته مرارا حتى اعترض فيها . ثم اعتمدت عليها وتسلقت الى الغرفة ، ومن الغرفة الى سطحها، وفعلت ذلك اياما ، وشددت القيد مع ساقي . فلما كانت ليلة العيد ، وقد شغل الناس وانصرف من كان على الباب ، صعدت بين المغرب والعشاء الى الغرفة ، ومن الغرفة الى سطحها ، ثم تدليت بالحبل الى بستان مجاور وفررت ... » (١)

كسر السجن :

وكان يحدث كثيرا ان يكسر السجناء او العامة السجن فيخرج من في السجون وكثيرا مانقرا في الطبري : « وفي هذه السنة كسر العامة السجن . »

فمن ذلك انه لما خرج الراوندية على

(١) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ١٢٠ .

أبي جعفر المنصور ، وكانوا قوما يقولون بتناسخ الارواح ، وان ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو المنصور (١) اخذ ابو جعفر رؤساءهم فحبسهم . فأقبلوا يطوفون حول قصر الخلافة وقد غضبوا . واعدوا نعشا وحملوا السرير ، وليس فى النعش احد ، ثم مروا فى المدينة حتى صاروا على باب السجن ، فرموا بالنعش ، وشدوا على الحراس ، وكسروا باب السجن فدخلوا واخرجوا اصحابهم . (٢)

ولما شغب الجند على الامين نقب اهل السجون سجونهم وخرجوا منها فلم يجازهم احد . (٣) وحاول اهل السجن ان يشغبوا على المأمون ، وان ينقبوا السجن ، فسدوا الباب من داخل ولم يدعوا احدا يدخل عليهم ، واخذوا فى نقب السجن . فلما كان الليل وعلا شغبهم وصوتهم ، ذهب المأمون فدعا بنفر من الشطار واصحاب الشغب فى السجن فضربت اعناقهم ، وصلبوا على الجسر . (٤) وهكذا اخفقت هذه الثورة فى السجن .

وفى زمن المستعين سنة ٢٤٩ هـ اجتمع العامة فى بغداد بالصراخ والنداء والنفير ، وانضمت اليها الشاكرية ، ففتحوا سجن نصر بن مالك واخرجوا من كان فيه . وانتهب ديوان

---

(١) الفخري ، ص ١٨٨
(٢) الطبري ، سنة ١٤١
(٣) الطبري ، سنة ١٩٦
(٤) تاريخ طيفور ، ص ١٧٨

قصص المحبسين ، وقطعت الدفاتر والقيت فى المـاء . (١)

وفى زمن المهتدي (سنة ٢٥٥) اجتمع جماعة من الجنـد والشـاكرية ومعهم جماعة من العامة ، حتى صاروا الى سجـن باب الشام ، فكسروا بابه فى الليلة الثالثة عشرة مـن رمضان واطلقوا اكثر من كان فيه . ولم يبق من اصحاب الجرائم الا الضعيف والمريض والمثقل . (٢)

وفى زمن المعتمد (سنة ٢٧٨) نقب المطبق من داخله وفر بعض المسجونين . (٣)

وقبيل وفاة الموفق (سنة ٢٧٨) قامت العامةفانتهبتدار الوزير اسماعيل بن بلبل ، وفتحت الجسور وابواب السجون ، ولم يبق احد فى المطبق ولا الجديد الا اخرج . (٤)

وفى سنة ٣٠٧ شغبت العامة فكسرت الحبوس فى مدينـة المنصور فأفلت من كان فيها . (٥)

وفى زمن المقتدر (سنة ٣٠٨) غلت الاسعار ببغداد وشغب العامة ووقع النهب ، وركب الجند فيهـا ، وشتتهم العامة ، واحرقت الحبس وفتحت السجون . (٦)

---

(١) الطبري ، سنة ٢٤٩
(٢) الطبري ، سنة ٢٥٥
(٣) الطبري ، سنة ٢٧٢
(٤) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٤٦٠
(٥) تاريخ بغداد ، ج ١ ، ٧٥
(٦) تاريخ الخلفاء ، ص ١٥٣

ولا بد ان نلاحظ ان كسر السجون كان نتيجة الشغب والفتن ، وعصيان الجند وغلاء الاسعار واضطراب العامة . وهذه امور كانت مما خص بها العصر العباسي الثاني . وقد كان للأتراك الشأن الكبير فيها ، ولن نورد كل ماذكره المؤرخون فى هذا الباب فحسبنا ماذكرنا .

موت الخليفة وعزل الوزير : وكانوا يطلقون السجناء لموات الخليفة او عزل الوزير . حدث التنوخي عن احمد بن المدبر قال : « لما سجنت مع احمد بن اسرائيل ، وسليمان بن وهب معا ، قال لي سليمان ذات يوم : رايت البارحة فى نومي كأن قائلا يقول لي : يموت الواثق الى ثلاثين ليلة . فلما كان يوم الثلاثين ، وكان الليل ، لم نشعر بالباب الا وقد دق دقا شديدا ، وصاح بنا صائح :

البشرى ، قد مات الواثق فاخرجوا . » (١)

وربما اطلق الخليفة الجديد المسجونين زمن الخليفة السابق كما فعل المهدي ، فقد امر باطلاق من كان فى سجن المنصور، الا من كان قبله تباعة من دم او قتل او معروفا بالسعي في الارض بالفساد . فأطلقوا من فى المطبق . (٢)

واطلق المقتدرعند توليه اهل الحبوس الذين يجوز اطلاقهم، وامر محمد بن يوسف القاضي ان ينظر فى ذلك . (٣)

---

(١) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ١٤٩
(٢) الطبري ، سنة ١٥٩
(٣) المنتظم ، ج ٦ ، ١٩

وذكر ابن الجوزي ان الراضي لما ولي الخلافة امر باطلاق من كان فى حبس القاهر فأطلقوا جميعا . (١)

وربما يطلقون لعزل الوزير او موته . حدث محمد بن الحسن الكاتب صاحب الجيش قال : قبض محمد بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب ، فى وزارته للقاهر ، على ابي وعلي معا . فحبسنا فى حجرة من دار ضيقة ، واجلسنا على التراب ، وشدد علينا . فقال لنا الموكلون بنا ذات يوم : قد عزم الوزير على قتلكما الليلة ... فتغير حالي ، وقام ابي يدعو الله ويصلي ، فلما مضى ربع الليل سمعت الباب يدق ، فذهب عني امري ، ولم اشك انه القتل . وفتحت الابواب فدخل قوم بشموع ، فتأملت فاذا فيهم سابور خادم القاهر. فقال : انصرفا الى منزلكما . واذا بالقاهر قد قبض على الوزير محمد بن القاسم وعزله . (٢)

العفو : وقد يطلق المسجونون بعفو من الخليفة ، او بحيلة يحتالون بها بشفاعة شخص من الاشخاص .

وقد تشفع سجين الى طاهر بن الحسين ، بأمراة اسمها ديدا ، كان يحبها ، فأطلقه . (٣)

---

(١) المنتظم ، ج ٦ ، ٢٦٦
(٢) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ٥٢ ـ ٥٣
(٣) تاريخ بغداد ، ص ١١٨

- ١٢ -

تقليد الخلفاء والوزراءبالملابس والازيـاء

يقول الدكتور « لالو » فى كتابه « الفن والحياة الاجتماعية» ان العامة مطبوعة على تقليد من هو ارفع منها مكانة ، واعلى شأنا . لاسيما تقليدها فى ملابسها وازيائها ، وفى كل جديـد يصدر عنها ، ليصدق قانون التقليد الذي نوه به « تارد »من وجود مخترعين يضعون الازياء ، ومقلدين يتبعون ماوضعوه . فواضعو الازياء ،هم ،على الاغلب ، المترفون الارستوقراطيون من الملوك ، والامراء ، والـوزراء ، والاغنياء . هـؤلاء يفتنون باختراع زي (مودة) من الازياء ، فاذا راته الطبقة المتوسطـة او العامة ، حلي ذلك فى اعينهم ، وأحبوا تقليده . وتمر برهة يعم الزي فيها بين الطبقات كافة ، وعندئذ تختر ع الطبقـة المترفة زيا جديدا يميزها من غيرها ، وما يزال هذا التبدل فى الازياء مستمرا ، مادامت الطبقات الاجتماعية باقية .

ويغلب حب التقليد عند النساء ، على الرجال . فلن تجـد آخذ لعقولهن ، ولا اجذب لأسماعهن ، من منظر أزياء المترفات والتحدث عليها . ولعل هذا التقليد طبع يخالط اللحم والدم.

واقد صادفت منهن من تجوع لتلبس لبسة فلانة او فلانة من المترفات ، وتستدين لتحلى حلية بنت الكبير او خليلةالوزير . وتجد فى ذلك التقليد ، من اللذة والزهو ، ماينسيها الم الجوع ، وعار الدين .

***

ولست احب ان استفيض فى الأدلة ، الا ان هذه الظاهرة تبدو واضحة جلية فى العصر العباسي ، ونستطيع ان نأتي بأمثلة منها .

فقد ذكروا ان يعقوب بن داود ، وزير المهدي ، كان له طراز خاص من الطيلسانات والقلانس ، قلده الناس فيها . وانتشر هذا الطراز . فلما غضب عليه المهدي ، نادى في اصحابه : لايوجد احد عليه طيلسان يعقوبي ،وقلنسوة يعقوبية الا أخذت ثيابه ، لان ذلك طراز الوزير فى اللباس .

وذكر ابو الفرج الاصبهاني ان علية بنت المهدي ، كان في جبينها فضل سعة تسمج به . وكانت علية اديبة ، ظريفة شاعرة . فاخترعت ، وهي الاميرة ، العصائب وجعلتها على جبينها ،ورصعتها بالجوهروالدر ،فقلدت النساء جميعا عصابة الاميرة ، وانتشرت العصائب انتشارا كبيرا ، وتفنن النساء بعدها بتزويقها وزركشتها ، فلم ير فيما ابتدعت النساء اجمل ولا احلى مما ابتدعت علية .

وهذا يذكرنا بالمركيزة د بومبادور . فقد كانت تلبس الزي فيتبعها نساء البلاط ، ثم سائر نساء الناس .

وكان جعفر بن يحيى ، على قول الجهشاري ، طويل العنق . وكان اول من عرض الجربانات وحشاها بالقطن . فاستملحها الناس ، ولبسوها مثله ونسبوها اليه ، فكانوا يقولون : انه يلبس جربانا برمكيا .

ولما افضت الخلافة الى الامين قدم الخدم وآثرهم ، فلما رات ام جعفر شدة شغفه بالخدم ، واشتغاله بهم ، اتخذت الجواري المقدودات الحسان الوجوه ، وعممت رؤوسهن ، والبستهن الاقبية والمناطق ، فماست قدودهن ، وبرزت اردافهن ، وبعثت اليه بهن ، فاختلفن بين يديه ، فاستحسنهن واجتذبن قلبه اليهن ، وابرزهن للناس من الخواص والعوام . قال المسعودي : فاتخذ الناس مثله الجواري المطمومات والبسوهن الاقبية والمناطق ، وسموهن الغلاميات .

ويحدثنا الشابشتي ، صاحب الديارات ، ان عريبا ، المغنية المشهورة ، ووصيفة الامين ، رؤيت وهي في سن سبع عشرة سنة ، تلبس القباء والمنطقة وتقوم على راس الامين .

وزبيدة كانت اول من رصع الخفاف بالجوهر ، ولبست الثياب الموشاة المنسوجة بالذهب ، فقلدتها النساء في ذلك ايما تقليد .

وكان المنصور قد احدث لبس القلانس الطوال وفرضها

على الناس ، فهزا ابو دلامة من هذه القلانس التي تشبه الدنان، فأبطلت . فلما جاء المعتصم ، وكان ميالا للتشبه بالأعاجم في ملابسه اعاد لبس هذه القلانس الطوال تشبها بملوك الاعاجم ، فلبسها الناس تشبها بفعله وسميت « المعتصميات » .

فلما جاء المتوكل اظهر لبس ثياب الملحم ، والملحم ثوب مسدود لافتحة له ، وفضل ذلك على سائر الثياب ، واتبعه من فى داره على لبس ذلك ، ثم انتشر هذا الطراز من اللباس ، وشمل الناس لبسه وسميت الثياب المتوكلية .

ويظهر ان المستعين لم يرض عن القلانس الطوال . فلما جاء صغرها . فأنتشرت القلانس الصغار بين الناس تشبها وتقليدا ، وأحدث الكمام الواسعة ، فجعل عرضها نحو ثلاثة اشبار ، فسار الناس على لبسها .

***

فأنت ترى شغف الناس بتقليد ازياء خلفائهم ايام بني العباس ، وما كان يومئذ ، تجده فى كل وقت ، وعصر ، ومكان . ولقد رايت ، ماعلل به التقليد « تارد » ، وما ذهب اليه « لالو » ، ولابن الطقطقي ، صاحب الفخري فى الآداب السلطانية ، راي يقارب راي لالو ، فقد قال : « والحق ان الناس يتبعون ملوكهم فى زيهم ، ويقلدونهم فى لباسهم ورسومهم وآدابهم ، لان انفسهم مطبوعة على تقليد من هو ارفع منهم » .

ثم يضيف الى ذلك فكرة جديدة فيقول : « ولانهم علموا ان زيهم الاول مستهجن فى نظر الخلفاء ، فتقربوا اليهم بزيهم ... »

- ١٣ -

عشق القيان

كان للقيان فى العصر العباسي الشأن العظيم والمنزلة العليا . ولم تشغل الحرائر ما شغلته القيان فى الادب والتاريخ والاجتماع . ولم يكن لهن ماكان لأولاء من اثر في تهذيب النفوس وصقل الطباع وانتشار المجانات ، الا من أوتيت منهن الامارة والجاه والسلطان ، شبيهات علية وزبيدة والعباسة .

وقد خلا ادبنا العباسي من صور المخدرات ، ولكنه رف بكثير من صور هؤلاء الجاريات . ففيه عنهن اشياء حسان ، واحاديث ظراف ، واوصاف بارعات .

ولم تبلغ القيان هذه الرفعة وتلك المنزلة الا بعد الجد والجهد والتعليم والتلقين ، والصقل والتهذيب . فكن يتخرجن على كبار المغنين اشباه الموصلي وابن المهدي ، ويحذقن العزف والضرب ، ويتفقهن فى العربية ، ويحفظن نوادر الاحاديث وفرائد اللغة واماني المجالس وشوارد الاشعار ، ثم يبرعن في اظهار الاناثة والدل ، حتى تصبح القينة مصدر غواية وفتون ،

ومثار دعابة ومجون ، وبهجة الارواح ومنية النفوس . فلا غرو ان اقبل عليهن الشبان والشيخان ، ولا عجب ان هن اتقن فن العشق ، واصابت سهامهن قلوب الابعاد والاحباب .

وقد الفت عنهن رسائل كثيرة منها « رسالة القيان » للجاحظ ، وكتاب « القينات » لاسحق بن ابراهيم الموصلي وكتاب « القينات للمدائني » ، وكتاب « القينات » ليونس بن سليمان المغني ، وغيرها . (١)

على انه لم يصل الينا من هذه الرسائل كلها غير رسالة الجاحظ التي ذكر فيها الكثير من احوال القيان وطبائعهن وميولهن واخلاقهن وطرقهن فى الاغوآء . وقد خصهن ابو الطيب الوشاء فى كتابه « الموشى » بفصل ممتع عن عشقهن وغرامهن . زاد فيه على ماذكره الجاحظ ، وافاد .

وقد لاتجد فى ادبنا العربي صفحة اكثر متوعا ، وابرع وصفا واحلى سطوعا ، واشد دقة ، من وصف الجاحظ والوشاء عن عشق القيان والحيل التي يتبعنها لاستمالة الشبان ، والسبل التي يسلكنها لطردهم اذا نفدت دنانيرهم وافلسوا . فلقد وفقا فى وصفهما توفيقا بعيدا .

لاجرم ان الجاحظ كان اسبق الى وصف ذلك ،ولكنه اجمل

---

(١) انظر هذه التواليف فى مقال لنا نشر فى مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق بعنوان (ماألف عن النساء) الجزء الخامس من المجلد السادس عشر ، ١٩٤١ .

وأوجز . أما الوشاء فلم يتعد ماقاله الجاحظ الا قليلا ،ولكنه شـرح وفصـل .

والمهم فى وصف هذا العشق ، ان الكاتبين ابانا عن عواطف كامنة ، وطرق مغرية ، وحيل واقعية ، حتى لتشعر ، وانت تقرأ ، انك اليوم بين يدي غانية من غواني الحانات ، اللـواتي تخرجن فى الفتنة والاغوآء : يجدن بالقبلة الشهية ، والعضة الندية ، ليبتززن الدراهم والاموال .

فقد قرروا ان القينة لاتكاد تخلص ، او تناصح فى ودها . لانها مجبولة على نصب الحبالات والشراك للمتربطين ليقعوا فى أنشوطتها . (١) ذلك لان حبهن ، كلهن ، كذوب وعشقهن متبدل غير ثابت . فهو لطمع او غرض . ولذا كن يقصـدن أهـل النشب واليسار ، ويصدفن عـن ذوي الافـلاس والاقتـار . (٢)

وكان من عادة القينة اذا رات فى مجلس فتى له غنى ، ان تميل اليه لتخدعه . فتمنحه باديء بدء نظـرها ، وتغمـزه بطرفها ، وتشير اليه بكفها ، وتداعبه بالتبسم ، وتغازله بأشعار الغناء ، فتغني على كاساته ، وتميل الى مرضاته . ثم تظهـر الشوق الى طول مكثه ، والميل الى سرعة عوده ، حتى تـوقع المسكين فى حبالها وتعلق قلبه بحبها ، وتطمعه فى قربها ، ثـم

---

(١) رسالة القيان ، ص ٧٠

(٢) الوشى (ليدن) ج ٢ ، ٩٢

تحزن لرواحه وتبكي لفراقه ، وتكاتبه تشكو اليه هـــواها ، وتقسم له انه ضميرها فى ليلها ونهارها ، وانها لاتريد سواه ، ولا تؤثر احدا على هواه ، ولا تنوي انحرافا عنه. ثم تعزز ذلك بالرسل ، وتخبره عن سهرها وتنبيه عن فكرها ، وتشكو اليه القلق ، وتخبره بالارق ،وتبعث اليه بخاتمها ، وفضلة مـــن شعرها ، وقلامة من ظفرها ، ولبان قد جعلته عوضا عـــن قبلتها ، وكتاب قد نمقته بظرفها ، ونقطت عليه قطرات مـن دمعها ، وضمنته الشوق والشكوى ، وسألته المـواتاة علـى حبها . وربما منحته من ريحانها ، واهدت اليه فى النيـــروز سكرا ، وفى المهرجان خاتما ، واخبرته انها لاتمل الدمـوع اذا غاب ، ولا ذكرته الا تنغصت ، ولا هتفت باسمه الا ارتاعت . . حتى اذا رات انها حوت عقله ،وصارت شغله ، واستمالت لبه، وسلبت قلبه ، وعلمت انه غريق فى بحر حبها ، أخذت فى طلب الهدايا ، فتشهت الثياب والاردية والعمائم والخفاف والعصائب المرصعة ، وخواتيم الياقوت ، ثم تمارضت مـن غير سقم ، وتعالجت من غير حاجة منها الى الدوآء ، لتجيئهـا هدايـــا ذوي الوجد من القمص المعنبرة ، والغلائل المسكة ، والاردية المرشوشة ، ومخانق الكافور ، والمسك الاذفـر ، والعنبـــر الاشهب ، والعود الهندي ، والماورد الجـوري ، والفراريـج ، والجـداء الرضـع ، والـدجاج الفائـق ، والفراخ المسمنة ، والرياحين والفاكهة ، يتبعها صنوف من الشراب : من العسل المطبوخ والمشمش ، تلحقها الدنانير والدراهم . فلا تزال فى

هدايا متواترة ، والطاف متتابعة ، حتى اذا نفد اليسار وذهب الاكثار واتلف المال ، واحست بالافلاس عمدت الى طرق اخرى .

لقد بلغت ماكانت تتمنى منه من مال وهدايا . ونالت ماكانت تتشهى من ثياب ، وشراب ، وعطور ، ومآكل وفاكهة، فلتصرفه عنها ، ولتبحث عن عاشق غر جديد .

تعمد عندئذ الى اظهار الملل من محبها القديم . فتتبرم بكلامه ، وتضجر بسلامه ، وتتفقد منه الزلل ، وتتتبع عليه سقطاته ، ثم تأخذ فى الجفاء والعتاب ، ثم تصرف عنها هواه ، وتميل الى سواه ، ثم تهجره ، فحينئذ يدرك المغرور الندم والاسف ، فلا ينفعه ندم ولا اسف .

لقد كان المال ، هدف القيان . وكن يحتملن القبح والشيب مع اليسار . ويكرهنهما مع الفقر . وهذا شأن الحسان كلهن .

« فليس للفقر مع الحب عمل » .

وربما اجتمع عند القينة من مربوطيها ثلاثة او اربعة ،وعندئذ يتحامون الاجتماع ، ويتغايرون عند الالتقاء . فتبكي لواحد بعين ، وتضحك للآخر بالاخرى ، وتغمز هذا بذاك ، وتعطي واحدا سرها والاخر علانيتها ، وتوهم انها له دون الاخر ،

وتكتب لهم عند الانصراف كتبا على نسخة واحدة تذكر لكل واحد منهم تبرمها وحرصها على الخلوة به دونهم جميعا (١).

***

وبعد ، فما رأيت أبرع ولا احسن ولا ارق ولا املح ، ولا أنفذ فى العواطف من هذا الوصف . حتى لتحسب انك امام عالم نفسي مجرب ، لايدع غمزة ولا اشارة ولا حيلة الا أحصاها . وليت شعري أكان الجاحظ والوشاء عاشقين لقيا : عشق القيان الجهد والعناء ،فثأرا منهن بهذا الوصف الخالد. وكأني بالجاحظ ، « وهو الذي عابوه بملك القيان » قد تيمه هواهن ، وأذبل قلبه حبهن . او انه راى عن قرب ماكن يصنعن . فقال : « ولو لم يكن لابليس شرك يقتل به ، ولا علم يدعو اليه ، ولا فتنة يستهوي بها الا القيان ، لكفاه . » ثم يستدرك فيقول : « وليس هذا بذم لهن ، ولكنه من فرط المدح . وليس يحسن هاروت وماروت ، وعصا موسى ، وسحرة فرعون ، الا دون مايحسن . »

على ان الجاحظ يتخذ لفتنةالقيان اعذارا. يقول : « وكيف تسلم القينة من الفتنة ، او يمكنها ان تكون عفيفة ، وانماتكتسب الاهوآء ، وتتعلم الالسن والاخلاق بالمنشأ . وهي تنشأ من

---

(١) رسالة القيان ، ص ٧١ — ٧٣ — والموشى ، ج ٢ ، ٩١ — ٩٥

لدن مولدها الى اوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله من لهـــو الحديث وصنوف اللعب والاخابيث ، وبين الخلعـاء والمجان . وتروي الحاذقة منهن اربعة آلاف صوت فصاعدا . يكـــون الصوت فيما بين البيتين الى اربعة أبيات ، اذا ضرب بعضه ببعض يكون عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله الا عـــن غفلة ، ولا ترهيب عن عقاب ، ولا ترغيب فى ثواب ، وانما بنيت كلها على ذكر الزنا والقيادة والعشق والصبوة والشوق والغلمة. ثم لاتنفك من الدراسة لصناعتها منكبة عليها ، تأخذ مـــن المطارحين الذين طرحهم كله تجميش ، وانشادهم مـراوده ، وهي مضطرة الى ذلك فى صناعتها ، لانهـا ان جفتها تفلتت ، وان اهملتها نقصت ، وان لم تستفد منها وقفت . » (١)

تلك صفحة رائعة من ادبنا العــربي ، وصورة بارعة مـــن الصور البارعة التي يعرضها علينا العصـــر العباسي ، وهـــي صورة حية فيها قوة وصدق وجمال .

---

(١) رسالة القيان ، ص ٧٢ ـ ٧٣

- ١٤ -

مــن مجالس اللهــو فى العصر العباسي

ايصح ان نطلق على العصر العباسي اسم عصر اللهو ؟

قد يكون فى ذلك مبالغة ، لان ذلك العصر كان فيه من كل شىء ، وان كان الناس فيه قد اطلقوا لانفسهم حرية التمتــع والتلذذ . عصر حر فى كل شيء .. شاعت فيه الحــــرية شيوعا كبيرا فلم يحرم منها انسان ولا جهلتها نفس . مــن المؤمن الى الزنديق ، ومن الغني الى الفقير .

كانت قصور الخلفاء مراكز ممتازة من مراكز اللهو . فيها الغنا والترف ،وفيها الصباحةوالجمال ،وفيها النساء والغلمان، وفيها اطيب الشراب واهنأ المآكل .. وبالجملة فيها كــــل مايساعد على اللهو ويدعو اليه .. فلا عجب اذا امتلأتالكتب بأخبــار مجالس اللهو فى تلك القصور .

لن احدثك عن هذه المجالس المترفة ، ولكني سأحدثــك عن مجالس اخرى ترى فيها صورتين متناقضتين من الصور المتناقضة الوفيرة عند العباسيين ، سأحدثك عن لهو المجــان والفســاق ، وعن لهو القضاة ورجال الدين .

قدم لنا عصر العباسيين ظاهرة تكتل الشباب الذين يجمعهم وحدة المشرب والذوق والتفكير . كان هؤلاء يجمعهم نظام واحد فى الحياة ، يعيشون كما يشاؤون ، ويلهون كما يحبون . ويحدثنا صاحب مطالع البدور عن فئة من هؤلاء كانوا ابناء نعمة فشردوا عن اهلهم وقنع بعضهم ببعض، اكتروا دارا مشرفة على الطريق ببغداد ، المعمورة بالناس . وكان هؤلاء يفلسون احيانا ويوسرون احيانا على مقدارمايملق الواحد من اهله ، أو يوسر . فكانوا اذا أيسروا أكلوا وشربوا ودعوا الملهين والملهيات ، واذا افلسوا قطعوا الوقت فى النظرالى الناس رائحين غادين . (١)

مثل هؤلاء الفتية كثير .. وما شردوا عن اهلهم الا ابتغاء التمتع بالحرية واللهو واللذة .. وليعيشوا على هواهم الذي ارتضوا .

من هؤلاء الفتية ، اناس من الخلعاء والمجان . كانوا من اظرف الناس احسنهم شعرا واكثرهم نادرة واشدهم مجونا وخلاعة . كمطيع بن أياس ، ويحيى بن زياد ، وحماد عجرد ، وحماد الراوية ، وكانوا جميعا على منهاج واحد فى الخلاعة ، وكل متهم بالزندقة .

ذكر الشابشتي ان هؤلاء اجتمعوا ذات يوم يشربون ،

---

(١) مطالع البدور ، ج ١ ، ١٩٣

فأقاموا على ذلك اياما عندهم خمرهم ، وعندهم قينتهم . فقال لهم يحيى بن زياد ، وهم سكارى : ويحكم ماصلينا منذ ثلاثة أيام ، فقوموا بنا حتى نصلي !

فقالوا : « نعم » ، فقام مطيع فأذن واقام ، ثم قال للمغنية : تقدمي فصلي بنا !

فتقدمت ، وكانت بلا سراويل ، وعليها غلالة رقيقة ، فلما سجدت انكشف متاعها ، فوثب اليه مطيع فقبله ، ثم قال :

ولما بدا هنها جاثما كراس حليق ولم تعتمد
سجدت عليه وقبلته كما يفعل العابد المجتهد

فقطعوا صلاتهم بالضحك ، ثم عادوا الى ماكانوا عليه .(١)

وذكر ايضا ان يحيى بن زياد كتب الى مطيع يوما : انا نشيط للشرب ، فان كنت فارغا فصر الي ، وان كان عندك نبيذ طيب وغناء جئتك . فجاءته الرقعة وعنده حماد الراوية وحكم الوادي وغلام امرد فأجابه :

نعم لنا نبيذ وعندنا حماد
وعندنا وادينا وهو لنا عماد
ولهونا لذيذ لم تلهه العباد
او تشتهي فسادا فعندنا فساد
او تشتهي غلاما فعندنا زياد

---

(١) الديارات ، ص ١٦٣

وخيرنا كثير والخير يستزاد

فلما قرأ الرقعة ، صار اليهم ، فتمموا بقية يومهم . (١)

وهكذا كانت مجالس هؤلاء ملأى باللذة والمتعة والغلمان والنساء ، والنوادر والشعر .. وكانوا يتآمرون فيما بينهم ، على غلام او على فتاة ، وتجري امور لاتصدر الا فى جو من الحرية المتطرفة التي تشيعها الحضارة فى المجتمعات والمدن .

ولكن هؤلاء فتية من المجان لاحرج عليهم اذا جاهروا بالمعاصي ، ولذوا طعم الحرية فى كل شيء .. فهل اتاك احاديث الكبار والقضاة ؟..

ذكر الثعالبي انه كان جماعة من الكبراء ينادمون الوزير المهلبي ويجتمعون عنده فى الاسبوع ليلتين على اطراح الحشمة والتبسط فى القصف والخلاعة ، منهم ثلاثة قضاة هم ابن قريعة ، وابن معروف ، والتنوخي ، وما منهم الا ابيض اللحية طويلها . فاذا تكامل الانس وطاب المجلس ولذ السماع واخذ الطرب منهم مأخذه ، وضع فى يد كل منهم كأس ذهب وزنه الف مثقال مملوء شرابا قطربليا ، او عكبريا ، فيغمس لحيته فيه بل ينقعها فيه حتى تتشرب أكثره ، ويرش منه بعضهم على بعض ، ويرقصون اجمعهم وعليهم لباس الشراب من المصبغات . فاذا اصبحوا عادوا الى عادتهم من التزمت والتوقر والتحفظ بأبهة القضاة ، وحشمة المشايخ الكبراء (٢)

---

(١) الديارات ، ص ١٦٣

(٢) الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ٢٠٤

- ١٥ -

لفيف من خلعاءالعصر العباسي

أمر الخلاعة فى العصر العباسي امر فرغ منه . كان ذلك العصر ولا شك ، عصر خلاعة ومجون ، وقد تعدى ذلك الى الفسق والدعارة ، ولكن من هم الخلعاء الذين زينوا مجالس الخلاعة ، ومن هم ابطال الدعارة فى هاتيك الايام ؟

سيمر بخاطرك اسماء قلائل ، مرت بك اثناء قراءآتك فعرفتها ، وستذكر مطيعا وحمادا وابا نواس ، ولكن هؤلاء لم يكونوا وحدهم الخلعاء الذين رغبوا فى اللهو واللذائذ ،واعرضوا عما سوى ذلك .. بل كان هناك كثيرون مثلهم ، مئآت ، والوف ، لم تحفظ الكتب القديمة التي بين ايدينا اخبارهم وحوادثهم . وسيرهم ، فجهلناهم . او ظلت سيرهم هذه دفينة فى الكتب المخطوطة التي لم تنشر ، فلم يأتنا خبر عنهم .

ولكن نشر كتاب « الديارات » للشابشتي اتاح لنا الاطلاع على اسماء جديدة لبعض اولئك الذين اطلقوا لانفسهم العنان فعاشوا بحرية تامة ، لم يحفلوا بقيود الدين او المجتمع ، ولم يأبهوا بتقاليد الآباء والاجداد .

وكتاب « الديارات » هذا ، ذو شأن كبير ، في هذا الباب ، فهو من الكتب النوادر الحسان التي يجب الرجوع اليها في دراسة الحياة الاجتماعية في كثير من وجوهها في ايام العباسيين ، وانك لتجد فيه من مظاهر المجتمع العباسي مالا تجده في كتاب آخر ، فهو يفضل عندي ، من بعض النواحي ، كتاب الاغاني وكتاب الفرج بعد الشدة ، وكلاهما مما يعتمد عليه في دراسة ذلك المجتمع المضطرب الغريب ، الفوار ، الحي .

وسأعرض عليك اذن بعض اسماء الخلعاء التي يمدنا بها كتاب الديارات هذا لترى وجوها جديدة وانموذجات من الخلاعة طريفة .

فمن هؤلاء ابو الشبل البرجمي ، كان في ايام المأمون وادرك المتوكل ومدحه وعمر طويلا ، وكان من الطياب ، وله شعر مليح . وكان منعكفا على الشرب لايفارقه ، ولا يوجد الا سكرانا . وكان يتطرح في الديارات والحانات ومواطن اللهو لايغبها ولا يتأخر عنها .

وكان له صديق نخاس يبيع الرقيق اسمه محمود الوراق ، وكانا لايفترقان وكانا يلهوان ويشربان معا . حدث ابو الشبل قال : صرت انا ومحمود الى قطربل فدعونا الخمار ، فقلنا : ايتنا ببنت عشر قد انضجها الهجير !

فجاءنا بها ، فقلنا : اسقنا !

فسقانا ، فقلنا : اشرب واسقنا !

فقال : انا مسلم (وكان يهوديا قد اسلم) ، فقال لي محمود : قوم يكون الخمار عندهم مسلما متحرجا ، وهم عند الخمار كفار ، اترى لله فيهم حاجة ؟

ومنهم الحسين بن الضحاك . وكان من الادباء والشعراء واهل الخلاعة والمجون ، ويعرف بالخليع . ونادم جماعة من خلفاء بني العباس منهم : الامين والمعتصم والواثق والمتوكل . وكان مستهترا بالخدم جدا لم يقصر عن ذاك حتى مات وله اشعار حلوة فى الغلمان والشراب .

وكان عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع شاعرا حسن الرواية حسن العلم ، وكان من الادباء الظرفاء ، صاحب غزل ومجون ، كثير التطرح فى الديارات والحانات ، متبعا اهل اللهو والخلاعة . وكان له شعر يتغنى به .وهو القائل فى غلام احبه :

اقمت بالدير حتى صار لي وطنا

من اجله ،ولبست المسح والصلبا

وصار شماسه لي صاحبا وأخا

وصار قسيسه لي والدا وابا

وكانت دعوته :

فخذ من الدنيا ولذاتها

فأنما نحن بها عارية

واكثر شعره بغلمان الديارات .

ولم يكن ابو جفنة القرشي يخلو من غلمان مرد : بعضهم يخدمه وبعضهم يغنيه . وكان من الخلعاء ومدمني الشرب ، والمتطرحين فى الديارات والحانات ، وله في غلمان الديارات اشعار حلوة .

وكان ابو العيناء من الطياب ، وشعره فى دير باشهرا حلو عذب يقول :

نزلنا دير باشهرا على قسيسه ، ظهرا
فأولى من جميل الفعل مايستعبد الحرا
وسقانا ، وروانا من الصافية العذرا
ونلنا كل مانهوا ه من لذاتنا جهرا
فتكنا وتهتكنا ومثلي هتك الترا ..

واشتهر عمرو بن عبد الملك الوراق . وكان من الخلعاء المجان ، المنهمكين فى البطالة والاستهتار بالمرد والتطرح في الديارات ، وله شعر كثير فى المجون ووصف الخمر وهوالقائل عن نفسه :

ايها السائل عني لست من اهل الصلاح
انا انسان مريب اشتهي نيل الملاح
قد قسمت الدهر يومين : لفسق ولراح

ولازم ابو شاس الديارات ، واكثر من وصف الخمر ، وكان مفتونا بالرهبان لايزال يلازمهم . وله شعر حلو .

وبالغ مصعب الكاتب فى التهتك ، وكان من اشد الناس خلاعة ومجوناواستهتارا بالمرد وتطرحافى الحانات والديارات. واشعاره كلها فى الغلمان. ومن شعره فى غزلان دير الزعفران :

وغزلان مراتعها فؤادي شجاني منهم ماقد شجاني
رضيت بهم من الدنيا نصيبا غنيت بهمعن البيضالغواني
اقبل ذا والثم خد هذا وهذا مسعد سلس العنان

وكان يتخذ الصلاح وسيلة للتغرير بالغلمان والمرد ، واشعاره فى التحدث عن الغلمان نسيج وحدها .

وثمة شاعر اسمه اللبادي كان من طياب الناس وملاحهم ، وذوي المجانة والخلاعة . وسمي اللبادي لانه كان يلبس ابدا على ثيابه لبادا احمر ، وله شعر جيد فى غلام كان بدير احويشا .

وخلف يموت بن المزرع ، وهو ابن اخت الجاحظ ، غلاما اسمه المهلهل . وكان شاعرا مطبوعا ، انهمك فى الخلاعة واللعب والتطرح فى مواطن اللهو والطرب ، ولازم الحانات والديارات .

واكثر منه فى الانهماك الثرواني الكوفي كان متطرحا في الحانات ، مدمنا شراب الخمر ، مغرقا فى اتباع المرد لايعرف شيئا غير ذلك ، ولا يوجد فى شيءمن امر الدنيا الا فيه. وكان آخر امره ان وجد فى حانة خمار بين زقي خمر وهو ميت .

- ١٦ -

الشعراء الفقراءفى العصر العباسي

سيد هؤلاء الشعراء ، على ما اعلم ، هو ابو الشمقمق . فقد كان شخصية غريبة شاذة ، لايحفل احدا . وكيف يحفل احدا وقد مر به اعرابي ذات يوم فأوقفه وقال له : خذ هذه الدراهم واهجني . فأطرق الاعرابي هنيهة ثم قال : « والله ما رايت احدا يشتري الهجو بالثمن غيرك » . وهجاه .

على ان الشيء الذي يثير شغفك عند هذا الشاعر ، هو وصفه الجوع والفقر وذل المسألة وصفا مؤلما . فهذه نغمة من نغمات الادب في العصر العباسي ، لم يعن احد بتصويرها ، كما صور البذخ والترف والغنى والمجون . وقد ابنت في كتابي « الظرفاء والشحاذون » ان هؤلاء الفقراء كانوا كثارا، غير ان ماوصل الينا من شعرهم قليل . وانا هنا اميز هؤلاء الفقراء حقا من الناس الذين اتخذوا الفقر مهنة وصناعة ، ثم اصبحوا من المكدين . والفرق بين هؤلاء واولئك كبير . فالفقراء حقا نجد فى شعرهم لوعة الحرمان ، ونجد وصف الاولاد والبنات الجياع ، ونجد الوانا من الصور

الانسـانية المؤلمة التي تثير شفقتك ، وقد تثير دمعتك اما الذين اتخذوا الفقر والكدية صناعة فما نجد لديهم غير الحيل والتفنن بها ، هذه الحيل التي لاتستدر دمعتك ، بل تثير دهشتك وعجبك .

وابو الشمقمق ، عندما يصف لك ماذكرت ، يحاول ان يأتي بكل غريب يظهر فقره ومسغبته اسمعه يقول

ان العيال تركتهم بالمصر خبزهم الغضارة
وشرابهم بول الحما ر مزاجه بول الحماره

فهؤلاء اهلوه ، لايجد خبزا يأكلونه ، ولا شرابا يشربونه ، فيميلون الى خبز الغضارة ، وشرب بول الحماره

والناس يفخرون ان يأكلوا الوانا من الطعام ، وضروبا من الفاكهة ، كل يوم ، ويقصدون جعل مائدتهم غانية حافلة ، قصدا . اما ابو الشمقمق فيفتخر بالخبز ، فاذا وجد معه اللحم ، فهذا أمان من الفقر

ماجمع الناس لدنياهم انفع في البيت من الخبز
والخبز باللحم اذا نلته فأنت فى أمن من التـرز

وانظر اليه يصف اولاده واهله ، بنبرة لوعة وحزن :

وقد دنا الفطر وصبياننا ليسوا بذي تمر ولا ارز
وذاك ان الدهر عاداهم عداوة الشاهين للـوز
كانت لهم عنز فأودى بها واجدبوا من لبن العنز

فلو راوا خبزا على شاهق لأسرعوا للخبز بالجمـــز

وثمة شاعر آخر ، عرف بالفقر ، هو ابو الينبغي . وكـان شاعرا مطبوعا ، جيد البديهية ، خبيث اللسان . وكان قـد هجا الفضل بن مروان فحبسه بعد ان اغرى به الواثق ،فبقى فى السجن حتى مات ، فعاش فقيرا ، ثم مات سجينا ، سأله ابو هفان وهو محبوس : ماكان من قصتك ؟ قال : انا ابـــو الينبغي ، قلت مالا ينبغي فحبست حيث ينبغي .

لعلك تجد فى شعره نغمة جديدة ، نغمة فيها اظهار تباين الارزاق والحظوظ ، ولكنه مع ذلك لايثـور ، بـل يصبـــر علـى مضض .

صبـــرا على الـذل والصغار من خالق الليل والنهار
كم مـــن حمار على جـــواد ومن جـواد على حمـار

وهذا البيت الثاني أوتى شهرة واسعة . قال ابن المعتز فى طبقات الشعراء : وطار هذا البيت فى الآفاق ، ولهج به الناس فهو ينشد فى كل مجلس ومحفل وسوق وطريق . واذا كان هذا شأن البيت ايام ابن المعتز ، فما اجدره ان يعاوده حظـه اليوم ، وان ينشد فى كل مجلس ومحفل وسوق وطريق ،بعد ان كثر الحمير الذي يركبون السيارات (خيول) اليوم .

وكان فقره يدفعه الى التعرض الى الوزراء والكبار فـــي مواكبهم . ذكروا انه عرض يوما ليحيى بن خالد فى مـوكبه .

والفضل وجعفر عن يمينه وشماله ، وفى الموكب وجوه الناس فقال له رافعا صوته :

صحبت البرامك عشرا وعشرا فخبزي شراء وبيتي كرا

قال ابو هفان : فلما كان من الغد جئته فقلت : ويحك ! ماذا صنعت بنفسك ولم تعرضت للبلاء ؟

فقال لي : اسكت ياعاجز ! والله ما امسيت امس حتى وافتني من عند الفضل بدرة ، ومن عند جعفر اخرى ، وقد اجرى لي كل واحد من مطبخه وظيفة .

ونستطيع ان نلحق بهذين ، شاعرا ثالثا هو الحمدوني . وكان من املح الناس شعرا ، واقدرهم على الوصف . وقد كان فقيرا ، وكان له طيلسان وهب له ، ثم حال لونه وتخرق، ولم يستطع ان ينال طيلسانا آخر . فكان عامة شعره فى هذا الطيلسان .

ياابن حرب كسوتني طيلسانا مل من صحبة الزمان وصدا

فحسبنا نسيج العناكب لوقيس الى ضعف طيلسانك سدا

ان تنفست فيه نتشق شقا او تنحنحت فيه ينقد قدا

وما زال يرفو طيلسانه حتى اسود :

فيما كسانيه ابن حرب معتبر

فانظر اليه فانه احدى الكبر

قد كـان ابيض ثـم مازلنا بـه
نرفوه حتى اسود من صدا الابـر

وقد ذكروا ان له فى طيلسانه هذا قريبا من مائتي بيت تفنن في معانيها

واخيرا نجـد شاعـرا رابعـا ، لابد مـن التنويه بـه ، هو أبـو فرعون الساسي ولعل حظه من الفقر كان وافرا ، بل كان اوفر ممن سبقه وكان ابو فرعون من افصح الناس واجودهم شعرا ، واكثرهم نادرة ، ولـه فى الفقـر آيـات بارعـات استمع اليه يصف بيته وما فيه :

ليس اغلاقي لبابـي ان لي فيه مااخشى عليه السرقا
انما اغلقه كـي لا يـرى سوء حالي من يجوب الطرقا
منزل أوطنه الفقـر فلو دخل السارق فيـه سرقا
لاتراني كـاذبا في وصفه لو تراه قلت لي قد صدقا

اما وصفه اولاده الصغار الجياع ،وطوافه لجمع الطعام لهم فمن عيون شعره.وقد اوردناها فى كتابنا الظراف والشحاذين فى العصر العباسي ، وفيها يقول :

وصبية مثل فراخ الـذر سود الوجوه كسواد القدر
جاء الشتاء وهـم بشـر بغيـر قمـص وبغير ازر
حتى اذا لاح عمود الفجر وجاءني الصبح غدوت أسري
وبعضهم ملتصق بصدري وبعضهم منحجر بحجري
اسبقهم الى اصول الجـدر هذا جميع قصتي وامري

فارحم عيالي وتول امري　أنا ابو الفقر ، وام الفقر

ابيات رائعة فيها تصوير صادق واقعي لحالتهوحالة اولاده. هؤلاء الفراخ ، السود الوجوه ، العراة ، بغير قمص وبغير أزر .. الذين يلتصقون بصدره وينحجرون بحجره .. من اجل هؤلاء الصبية يطلب الرحمة ويسمى نفسه ابا الفقر وام الفقر .

وهذه الشكوى في اغلب شعره ، فهو دائما يشكو الفقر والجوع ، وان عياله لايأكلون . هذه قصيدة يخاطب فيها الخليفة ويقول :

اليك اشكو صبية وامهم　لايشبعون وابوهم مثلهم
قد اكلوا اللحم ولم يشبعهم　وشربوا الماء فطال شربهم
وامتذقوا المذق فما اغناهم　والمضغ ان نالوهفهو عرسهم
لايعرفون الخبز الا باسمه　والتمرهيهات فليسعندهم
وما راوا فاكهةفي سوقها　وما راوهاوهي تنحونحوهم
وجحشهماجربمنقورالقرى　ومثل اعواد الشكاعي كلبهم
ادعو لهم يارب سلم أمهم

فهذه أبيات فيها طرافةوحياة ، لانها تصف ما في هذه الحياة . وموضوع الشعراء الفقراء واسع ذو نواح مختلفات ، وانما هذه صور لهذه الشعراء جديرة بان توسع وتفصل.

فهرس الكتاب

